أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م
الوعي الإسلامي
AL-Waei Al-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية

اللغة العربية الفصحى

نظرات في قوانين تطورها وبلى المهجور من ألفاظها

عبدالله أيت الأعشير

الإصدار
الرابع والأربعون
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

اللغة العربية الفصحى

نظراتٌ في قوانين تطوّرها
وبِلى المهجور من ألفاظها

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-Islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

دولة الكويت - في مطلع كل شهر عربي

الطبعة الأولى

الإصدار الرابع والأربعون

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

العنوان:

ص.ب ٢٣٦٦٧

الصفاة ١٣٠٩٧ الكويت

هاتف: ٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦ - ١٨٤٤٠٤٤

فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩

البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

الموقع الإلكتروني:

www.alwaei.gov.kw

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية

أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م
الوعي الإسلامي
AL-Waei AL-Islami
مجلة كويتية شهرية جامعة

اللغة العربية الفصحى

نظرات في قوانين تطورها وبلى المهجور من ألفاظها

عبدالله أيت الأعشير

lisanarabs.blogspot.com

الإصدار الرابع والأربعون
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم رئيس تحرير مجلَّة «الوعي الإسلامي»

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلَّمه البيان، ووهب له العقل ليعقل عن ربه ما شرعه وأبان، وأنزل القرآن تبصرة للعقول والأذهان، وأرسل رسوله بالهدى والبلاغ والتبيان، وقيَّضَ من عباده من نظم الفقه بأفصح لسان، أحمده حمداً يملأ الميزان.

وأشهد أن لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له كل يوم هو في شان، وأشهد أن سيِّدنا ونبيِّنا محمداً عبده ورسوله المبعوث إلى الناس كافة بالدليل والبرهان. اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

أمّا بعد:

فإنّ العلم والثقافة الشرعيّة ميدانٌ خصبٌ لكلِّ متعلِّم؛ إذا أراد أن يستزيد من الإحاطة بلغته، ودينه، ومبادئ أمَّته.

وحتَّى ينتشر هذا الوعي ويعمّ، كان لا بد من توفير المواد العلميّة اللَّازمة له.

ومن أهمِّ تلك الموادِّ: الكتب بمختلف أنواعها ومناهجها ومستوياتها، شريطة أن تكون نافعة بنّاءة جادّة.

ولأجل تواصل المثقَّفين شرقًا وغربًا، وتنامي الشعور بالانتماء، وتقوية أواصر الارتباط الثقافي بين شعوب الأمّتين العربيّة والإسلامية، كانت فكرة الاجتهاد في إخراج الكنوز التراثية، وطباعة الرسائل العلميّة، أولويَّةً عمليَّة في مجلَّة «**الوعي الإسلاميّ**»، فهي بذلك تسعى لزرع الثقافة العربيَّة الإسلاميَّة، بشتَّى صنوفها، في الناشئة والمبتدئين، وفي الصغار والكبار، على حدٍّ سواء.

وقد جَمعتْ مجلّة «**الوعي الإسلاميّ**» طاقاتها وإمكاناتها العلميّة والمادِّيَّة لتحقيق هذا الهدف السامي، فتَيسَّر لها بفضل الله تعالى إخراج عدد ليس بالقليل من هذه الكتب والرسائل، وكان لها نصيب وافر من الحفاوة والتكريم في كثير من المجتمعات داخل الكويت وخارجها، وذلك لما تميَّزت به هذه الإصدارات من أصالةٍ وقوّةٍ ووضوحِ منهج، ومراعاةٍ لمصلحة المثقَّف، وحاجته العلميّة.

ومن هذه الإصدارات النافعة، كتاب:

«اللغة العربية الفصحى»

للأستاذ الفاضل عبد الله آيت الأعشير

ومجلّة «**الوعي الإسلاميّ**» إذ تقدّم هذا الإصدار لقرّائها، فإنّها تتوجّه بخالص الشكر والتقدير للأستاذ الفاضل على إذنه الكريم بطباعة الكتاب، نسأل الله له التوفيق والسداد.

والحمد لله رب العالمين

رئيس التحرير

فيصل يوسف أحمد العلي

ابتسار

في زمن تلاطمت فيه أمواج العجمة، وتعالت فيه أنكر الأصوات لتدمير الفصاحة وتعكير صفاء اللغة العربية، اعتقاداً منها أنها تملك العتاد الحربي اللازم في معركة التحطيم والتخريب، أضع بين أيدي القراء الرصفاء هذا الكتيب، وسط هذا المشهد الثقافي العربي الذي يعِجُّ بغير قليل من الترجيعات التي لوثت ثوب العربية الناصع، اتباعاً منهم لزمرة من المنشئين الألفاف المستضعفين المصابين بالعمش الثقافي، والكسل اللغوي الذي يعد آفة هذا الزمن العربي الرديء؛ تكفيهم القبسة المتعجلة عن تجشم عرق القربة، وحيرة البحث المضني، ظانين أنهم يؤسسون لقيم الحداثة والكمال في كل شيء تقذف به أقلامهم المقحوطة، وهم ـ في الحقيقة ـ يكتفون بالوقوف على العتبات والأبواب لا يجتازونها إلى وصيد البدايات. يظهر ذلك من خلال التبني القاصر لأفكار ومفاهيم مستوردة لم يبذلوا النكيثة في التمييز بين منفعتها وضررها، بالنسبة إلى اللغة العربية التي شرَّفها الله تعالى وعظَّمها بإنزال كتابه المقدس بها، لذا ليس هناك أبلغ من أن يقال لهم ما قال الخليل بن أحمد

للأصمعي في يأس عندما تعذر عليه أن يعلمه علم العروض مستشهداً بقول الشاعر:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع

وأي ضرر أعظم من ادعائهم أن العربية ـ كغيرها من اللغات ـ ليست سوى رموز نعبر بها عن أفكارنا ومشاعرنا، وبما أن هذه الأفكار والمشاعر في تبدل مستمر، فإن الحاجة تقتضي استبدال الرموز الجديدة بالرموز القديمة أملاً في إنعاش العربية التي أظهرت ضيقاً بالنسبة إلى اصطلاحات منتجات الحضارة الغربية، على إثر الحجر على العربية الذي ليس سوى الحجر على عقل العربي، من خلال تبني منطق الشرطي الذي يقف في وجه كثير من الاستعمالات اللغوية، ويقصيها من التداول بحجة انتصارها لتيار العامية تارة، ولحماية العربية من طوفان الإنجليزية والفرنسية، وغيرهما من اللغات التي تنذر قادمات أيامها بالوصول إلى حالة من الفوضى التي تصاب فيه الفصحى بكارثة تزلزل كيانها، وتدمر ما حلاها به القرآن الكريم، من بديع العبارة، وجمال الصياغة، ودقة الكلمة التي تصيب مرادها، لا تدانيها فيه أي لغة من لغات الدنيا، مهما حاولت أن تجرَّ عليها أذيال الفخر والكمال.

والحق أن الدعوات التي تملأ الآفاق ضجيجاً بركوب قاطرة التجديد، من دون هدي مستنير، يحتاج كثير منها إلى التنبيه أننا قد نجد قدماً في دعواتهم التجديدية، وحداثة في

دعوتنا إلى سلوك سبيل الاعتدال في مسألة تطوير اللغة من الداخل، مع مراعاة قواعد وقيود تلك التطورات حتى لا يصبح التطور مسخاً ونسخاً وسلخاً، يدخل إلى العربية تعابير غريبة ما سمعنا بمثلها في آبائنا الأولين مثل قولهم: لبس فلان سرواله بدل سراويله، وقولهم: بائع الخضر، بدل بائع الخضار، وقولهم: بائع المجوهرات، بدل قولهم: بائع الجواهر، وقولهم: هذا أخوه بلبن أمه، بدل قولهم: بلبان أمه، وتوهمهم أصالة تأنيث جمع (مستشفى) في قولهم: إحدى المستشفيات، بدل أحد المستشفيات، وحذفهم (لا) من (لا سيما) رغبة منهم في اختصار الكلام، وهو أمر أنكره النحارير الحذاق.

بل إن الجهل بأسرار العربية يجعلهم ينطقون بخلاف ما يريدون من المعنى، كما هو الشأن بالنسبة إلى العبارة الآتية التي يرددها مجددو المناهج والبرامج التربوية اليوم قائلين:

(نريد استبدال بيداغوجية الأهداف ببيداغوجية الكفايات)

وهم يعنون أن المبدَل هو الأهداف، وهذا لعمري قصور يظهر بالدليل القاطع الجهل بخواص تركيب الجملة في العربية، وتحريف الكلم عن مواضعه، حيث إن المبدَل هو الذي تلحق به الباء كما يتضح في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام الذي أنكر على قومه أخذ الهَيِّن؛ أي: البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل، وترك الخير؛ أي: المن والسلوى، من سورة البقرة، آية رقم ٦١: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ

ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾، وفي قوله تعالى من سورة النساء: آية رقم ٢: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾.

حيث إن هذه الانحرافات الشائنة تبرز أن الأنظمة اللغوية لا تستجيب كلها لعملية التجديد بالقدر نفسه.

فإذا كانت التطورات تلحق بالنظام المعجمي الذي يظهر قابلية فائقة في التطور من خلال عمليات التوليد والاشتقاق ونقل المعنى، فإن باقي الأنظمة (النحوية والصرفية والصوتية) تتأبى عن التغيير، ولا تستجيب له إلا لماماً، وبدافع بعض الظواهر السياقية التي لا يتوفر لها الاطراد، وحتى إذا توفر لها تبقى في الغالب الأعم جزئية لا تذعن لها الجماعات اللغوية التي تتكلم العربية الفصحى.

إذا كنا في دعوتنا لا نريد، ولا ينبغي لنا أن نقصر التطور على زمن دون آخر، إذ لو اقتصر العرب على ما قاله القدامى لضاعت ثروة لغوية نحن في مسيس الحاجة إليها، ولحكم على توليدات المولدين بالخروج عن سنن العرب في كلامها، فإننا مع ذلك لا يرصف بنا ولا بعربيتنا أن نعزل دعوات التطور الجارف التي يروج لها البعض، عن الحروب الثقافية التي شرع الغرب في تنفيذ مقدماتها على المستوى اللغوي، حيث يراد للاحتكاك اللغوي الذي يشهده العالم، أن يتحول إلى صراع وتنازع على البقاء، وسعي دؤوب وراء التغلب، الذي إن لم يستطع الوصول إلى إماتة اللغة، فإنه سيتمكن من خلال مغرياته وأدواته

الحضارية من مزج السم بالعسل حتى يصل بالعربية إلى حالة تكون فيها مستعدة للموت بالتقسيط. وقانا الله شر هذه العواقب!!

ومع ذلك لا يرصف بنا ولا بالأجيال اللاحقة أن نجمد عن إبداع جديد، وتوليد طريف، وارتجال مفيد؛ لأن الدعوة إلى الإبقاء على المائدة اللغوية التي يبسطها القرآن والشعر العربي حتى آخر القرن الخامس، من دون إضافة صنف، وتجديد لون وتخير مادة، قد تذهب شهية الناشئة، وتصرفها عن الإقبال على المائدة العربية تجنباً لعسر الهضم؛ إلى موائد أخرى تبسطها اللغات الأخرى المتفننة في أساليب الإغراء ومسوغات الإقبال عليها بنهم لا يعدله ميل، اعتقاداً منهم أنها هي المورد السلسبيل الذي يطفئ غلة، ويبرئ علة المغص الذي يصاب به المقبل على تناول المادة ذاتها المبسوطة على المائدة العربية، رغم ما تمتاز به العربية من مرونة فائقة في التعبير عن المواقف المتعددة وسعة اشتقاقية نادرة وغنى في المفردات لا يدانيه غنى ولا تجاريه فيه أي لغة. وما تعرف به من إمكانات عديدة في القلب والإبدال والحذف وهلم جرّاً، لا ترى فيها أي وصمة نقص، إلا في ما لم يكن يقع تحت حس العربي القديم من أنواع الصناعات وأشكال الموجودات التي لا عهد لهم بها.

وعلى الجملة يجب أن نواجه اليوم الحضارة الغربية، وما تنتجه مصانعها ومختبراتها، بتمثل الروح العلمية التي

واجهت بها العربية معركة التحديث في العهود الأولى، حيث مهر العباسيون في إيجاد أبلغ الوسائل في نقل الكنوز العلمية والثقافية لدى الأمم الأخرى إلى العربية، الأمر الذي انتهى بها إلى أن تصبح لغة الأدب والعلم والدين والفلسفة والاجتماع، تعبِّر عن كل هذه المواقف دون أن تضطر إلى ارتداء أثواب الثقافات الأخرى من رومانية وقبطية وفارسية، حيث انقادت لهم وتكاملت بما توافر لها من مزيات لم تتوفر لغيرها، وبذلوا النكيثة في الإبانة عن صحيح اللغة وضعيفها ورديئها المذموم، الذي عدوه سوسة نخرة لا ينبغي التساهل معه، ولذلك أبعدوه عن اللغة العلياء التي جعلوا المحافظة عليها من الدين.

كما أحرص من خلال هذه القراطيس على تخليص العربية من أوهام الجمود والتكلس التي علقت بها، وتبيين آليات تطورها وضبط قوانينها، حتى إذا ارتفعت أصوات لترديد ترجيعات غير مسندة بأدلة ثابتةٍ، انبرينا إلى تفنيد مزاعمه بالقول الثابت من خلال توضيح آليات التطور وسبله المستساغة من لدن الذوق اللغوي السليم، الذي يزكي الاشتقاقات المقبولة، ويذعن للمجازات الجديدة والتوليدات الطريفة والاختصارات البليغة من دون مجاراة منطق اللغات الأوروبية، وتفصيل التغيرات التي تلحق بها على أثواب العربية الفضفاضة.

وقبل أن أمسح اليراع عن هذا الابتسار، أؤكد أنني قسمت هذه القراطيس إلى أربعة فصول:

قرعت ظنبوب الاجتهاد لأجل الإجابة في الفصل الأول عن سؤال: أي تطوير يضمن مستقبلاً مشرِّفاً للغة القرآن الكريم؟

وفي الفصل الثاني عرضت لبعض مزايا اللغة العربية المتهمة بالجمود والتحجر، مؤكداً أن هذه المزايا التي تتصف بها من الأدلة القاطعة على تطورها وغناها.

أما الفصل الثالث فقد خصصته للحديث عن عوامل التطور، كما عرضت فيه لمظاهر ذلك التطور الذي تجرُّ بواسطته أذيال الفخر والتفوق على سائر اللغات.

بينما أفردت الفصل الرابع لاستقصاء أسباب بلى الألفاظ.

ثم ختمت الدراسة بمجموعة من الاقتراحات، فإن هديت إلى إصابة كبد الظبي في ما أشرت إليه، فتلك هي بغيتي، وإلا فحسبي أنني نبهت إلى أن السكوت عن مقدمات الحرب اللغوية التي يخوضها الغرب، قد يضرب على البصائر عصابة تغري باستدخال طوفان جارف من الألفاظ الفرنسية والألفاظ الإنجليزية حتى نصل إلى حالة العجز اللغوي والاستلاب الفكري الذي يحولنا ـ لا قدر الله ـ إلى العرب المستغربة!!

وإذْ أعترف أني ـ في دعوتي ـ لست سوى فرع من أيكة العلماء اللوذعيين الحاذقين الذين ركبوا ظنبوب الاجتهاد في بذل الجهد والوقت لإثراء العربية وتقويتها في حروبها اللاحقة، أملاً في أن تظفر بالفوز المبين، وتظهر للعالم ما تزخر به بنيتها

من إمكانيات باهرة لا تجاريها فيها أقدر اللغات على توصيف مخترعات العولمة، فإنني في ما أشرت إليه أعلم أن آرائي الفطيرة قد لا تبرئ عِلة، وقد لا تشفي غلة إذا لم تنهض المجمعات اللغوية المنتشرة في الوطن العربي، بهذه المهمة، حتى تنضج الآراء التي تذاع هنا وهناك على نيران الجدال الهادئة؛ لأنها وحدها ـ بعد القرآن الكريم والشعر العربي ـ القادرة على إغناء العربية في إطار من المحافظة على الأصول.

✍ **عبد الله أيت الأعشير**

❒ ❒ ❒

الفَصْلُ الأَوَّلُ

أي تطوير يضمن مستقبلاً مشرِّفاً للغة العربية؟

أي تطوير يضمن مستقبلاً مشرِّفاً للغة العربية؟

قبل أن تجاوز رهبة البداية، أؤكد أنه لا عاصم لنا اليوم في ظل ثقافة الأسئلة التصحيحية التي يشهدها العالم المعاصر من اعتماد استراتيجية لغوية واضحة تمكننا من إعادة صياغة الأسئلة الناجحة القادرة على وقف نزيف اللغة العربية، نتيجة تبني ادعاءات الغرب العولمية التي تفرض كونية تصوراته ومفاهيمه، انسجاماً مع كونية حداثته المزعومة.

وحتى لا تنطوي علينا الحيلة، نؤكد من البداية أن الأطروحات الغربية بالنسبة إلى التطور اللغوي، وما ينتج عنها من موت لغات وإحياء أخرى، يُعد تآمراً على العربية لغة القرآن المقدس، وتسليماً كسولاً بجواز تفصيل التغيرات التي تظهر اللغات الأوروبية قابلية لها، على اللغة العربية الموسومة على الدوام بطبيعتها الخاصة ومزياتها الباهرة القادرة على التجدد والتوليد في إطار من الاستمرار والمحافظة على الأصول الثرة التي تغذي كيانها بِبَنين وحَفَدة لا ينقطع نَسْلهم.

ولقد أثبتت شواهد العصر أن الاكتفاء بنقل عدوى العادات اللغوية الأوروبية، والجري بإيقاع جنوني للحاق بالتطورات

الماحقة التي لا تستقر على صيغة نهائية رغبة في الوصول بالعربية إلى مستوى التوحد مع أنظمة الإنجليزية والإسبانية والفرنسية والروسية والألمانية وهلم جرّاً، ليس سوى الحكم على لغة القرآن الكريم، والشعر العربي البليغ بالموت، في الوقت الذي ترتفع فيه أصوات الغيورين على العربية، منادية بضرورة اعتبار القرآن المقدس، والشعر العربي القديم القاعدة اللغوية للسان العربي المبين.

من أجل ذلك ليس من السهل تصور وجود عربية تنسلخ من هذين الأصلين الضامنين لبقائها حية متجددة باستمرار، نظراً لصيغ الكمال التي توفره لغة المصدرين اللذين يمثلان القلب والقالب لفكرة الإحياء والتطوير، الذي يسير على هدى مستنير، يراعي التوازن بين أمرين مهمين هما: النظام والحرية.

النظام الذي يهذب اللغة، ويحدُّ من غلواء اللحن، ويحارب الفوضى في الاقتراض الذي ينطوي على كثير من الوبال على اللغة المستقبلة، ولا سيما بالنسبة إلى الميادين العلمية والتكنولوجية التي تفوق فيها الغرب، تفوقاً أدى إلى اختراق حصوننا غير المنيعة، من خلال السيل الجُراف القُحاف لمواكب الألفاظ والتعابير الأجنبية التي لم يستنكف أبناء العروبة اليوم من استعارتها بنصيتها من دون النظر في إخضاعها لمنطق العربية حتى تتمتع بالحقوق التي تتمتع بها اللفظة العربية.

أما الحرية فتتمثل في روح الاختراع والإبداع الشاهدين

على حيوية اللغة، واستجابتها إلى احتواء ما تقذف به مختبرات ومصانع الأمم المتقدمة، في إطار من الوعي بالزيادة في الألفاظ، إما عن طريق الوضع والاصطناع، أو بواسطة التغيرات التي تطرأ على الألفاظ من خلال القواعد الاشتقاقية والتوليدات الدلالية التي لا يجب أن تقطع الصلة بالأصول التي منها استمدت، بحيث تظل الألفاظ والعبارات المبتكرة معترفة ببنوتها للأصول القائمة بالفعل، ويتفادى من خلال تلك الاستمرارية انتحار اللغة وتلاشي كثير من الألفاظ القديمة تحت خديعة تغير مجالات الاستعمال التي تورط الأجيال القادمة «في اختراع عربية أخرى تتسم بالافتعال، وقد لا يتوفر لألفاظها ما تطلبه اللغة من إجماع الناطقين بها على استعمالها، فتتحول عملية التطوير المنشودة إلى أكبر عملية تدمير لغوي في التاريخ»[(١)].

كما يتضح ذلك من خلال الألفاظ المعاصرة المنحوتة على هذه الشاكلة التي تمعن في إدخال الشطط على ثوب العربية الناصع: حِزْضَر؛ أي: الحزام الأخضر، طِنَفْسي: طبْ نَفسي، مُحبْرم: ماء حب الرمان، مَشْكنَ؛ قال: ما شاء الله كان... وهي كلها منحوتات، بالإضافة إلى ما يكتنفها من غموض وتعمية، ابتعدت كثيراً عن إفادة العربية بالإغناء والاختصار.

---

(١) في التطور اللغوي، د. عبد الصبور شاهين ص١٠٢ و١٠٣، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م مؤسسة الرسالة، بيروت.

يتضح مما تقدم أن أي لغة تولِّد سلسلة من القواعد الملزمة للجماعة اللغوية، وأن أي خرق لتلك القواعد يشكل تدميراً للنظام، وسقوطاً في شرك الحرية العمياء التي تغير على الحصون والقلاع لاجتثات وتبديل كل ما استطاعت إليه سبيلاً، حتى تصل إلى الإجهاز على لغة الأمة من خلال إدخال الألفاظ الأجنبية إلى حظيرتها، وتشجيع الدعوات التي تملأ الدنيا ضجيجاً بهجر لغة الأقدمين البالية، وقبر تراثهم، وبذلك تفقد الأمة كلماتها، وتنزل تعابيرها عن مستوى الأسلوب القرآني، والشعر العربي، فتنشأ الفجوة بين العرب، وبين فهم لغة القرآن والحديث النبوي الشريف، والشعر البليغ؛ لأن لغتهم غير لغة تلك المصادر، ومن ثمة تضيع الطاقة اللغوية الهائلة التي تزودنا بها تلك المصادر، ويضيع مفتاح التحرر من الاستعباد اللغوي الذي لا يبقي ولا يذر، إلا ما يبقيه الوشم في ظاهر اليد من بهاء ونصاعة العربية ودقتها في التعبير عن الأشياء بحس لغوي لافت يراعي مكامن الدقة ومنبع الطاقة الدافقة في تعابيرها التي يسحر عبقها الجمالي الجذاب.

لذلك لا ينبغي أن نطوي كشْحَنا عن هذا الكمال الذي توفره لغة القرآن سواء بالنسبة إلى اشتقاقاتها التي لا يدانيها اشتقاق، أو بالنسبة إلى نحوها المرن الثري التراكيب، أو بالنظر إلى معجمها الغني الوافر الدلالات، وأصواتها الشاملة التي ترسم حدوداً واضحة للخفة والثقل، فتسمح بتوالي أمور معينة،

وتكره توالي أشياء أخرى، إلا إذا كنا مستعدين للتنازل عن ذاتيتنا وهويتنا ونظرتنا للحياة، حيث إن السماح باقتباس تعابير ومسميات اللغات الأخرى من دون صبغها بالصبغة العربية يعني أننا «نستعمل حقاً وسيلة ما، ولكنها وسيلة الآخرين، ولا يقتصر الأمر على نقل هذه الوسيلة، ولكن يتعدى ذلك إلى استعمال الفكر نفسه. فأنت لا تستعمل الكلمة إلا ووراءها ماض عريق في الحضارة والفكر والاستعمال اليومي، ولا تستعملها إلا مع الوحي الذي توحي به لكل الذين استعملوها منذ كانت كلمة، وبكل ما شحنوها به من دلالات، ولا تستعملها إلا مع العبقرية التي عاشت فيها هذه الكلمة.

إنها عبقرية تتعدى «الوسيلة» إلى الهدف، وبهذه العبقرية تتحدث كل من اللغة التي نستعملها. فنحن حينما نستعمل اللغة العربية لا تتخلى وهي في أقلامنا أو نطقنا أو إدارتنا عن عبقريتها الموحية، وحينما نستعمل الفرنسية لا تتخلى أيضاً عن عبقريتها الموحية، ولو استعملناها في أسماء الحضارة أو في الأدوات المنزلية، فأحرى إذا استعملناها في التعبير عن الفكر...»[1]، وابتلعنا ما تطبخه مؤسسات الغرب من دون مضغه وهضمه، فيغدو الطعام سُمّاً ناقعاً، والشراب هلاكاً زُعافاً.

---

(١) مع الأدب والأدباء، عبد الكريم غلاب ص١٤٦، ط١، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، دار الكتاب، الدار البيضاء.

وقد أحسن جبران خليل جبران التعبير عن تأثير التمدن الأوروبي والروح الغربية على اللغة العربية مؤكداً أن التأثير «شكل من الطعام تتناوله اللغة من خارجها، فتمضغه، وتبتلعه، وتحول الصالح منه إلى كيانها الحي كما تحول الشجرة النور والهواء وعناصر التراب، إلى أفنان فأوراق فأزهار فأثمار. ولكن إذا كانت اللغة من دون أضراس تقضم ولا معدة تهضم، فالطعام يذهب سدى، بل ينقلب سُمّاً قاتلاً...»[1] يصيب الأمة في المفصل، ويفضي إلى ضيق أوضاع اللغة وهرمها، نتيجة تحجر عقول أبنائها وضيق تفكيرهم وتخلفهم عن معترك الحياة.

لذلك يجب التنبيه إلى أن التراجع الفاحش في اتساع العربية، حتى كادت كنانتها تخلو من أي سهم يصيب المحز في وصف آلة مستحدثة، إنما هو هرم «في الأمة لا في اللغة؛ لأن ما عرض لها من الهجر والإهمال غير لاصق بها... وإنما هو عجز في ألسنة الأمة، وتأخر في أحوالها واستعدادها»[2]، واكتفائها من الغنيمة بالإياب، لا يغنيها ما عندها من ذخيرة لغوية تسم المعنى الواحد بمئات الألفاظ.

---

(١) جبران واللغة العربية، د. إميل بديع يعقوب ص٢٤٨، ط١، ١٩٨٥م، منشورات جروس، برس، طرابلس، لبنان.

(٢) في اللغة والأدب، إبراهيم اليازجي، سلسلة الروائع، رقم ٤١، ص٣٣، ط٢، ١٩٦٥م، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.

فالأسد له خمسمائة اسم وصفة، وللحية مائتان، وللعسل ثمانون، وللخمر مائتان، وللسيف ألف، وللداهية أربعة آلاف، وللحجر سبعون، وهلم جرّاً... وهي أسماء وصفات تغنينا عن استعارة أسماء وتعابير الغربيين الخداج دون تثبت وتمحيص، كما يتضح من الأسماء والتعابير التي تقذف بها مصانع الغرب البراقة، فنلتقطها ظانين أنها إحدى لمعات التجديد لثوب العربية الرث على هذه الشاكلة: سوزان: الذي كان في الأصل اسماً عربياً ينطق هكذا (سوسن)، وقل الشيء نفسه بالنسبة إلى كلمتي (كابل) و(شيك) اللتين قمنا بإعادة اقتراضهما من الغرب ونسينا أصلهما العربي (حبل) (صك).

أما تعبير «النقطة التي أفاضت الكأس»، فهي عبارة دخيل: (La goutte qui a débordé la coupe)، تشير إلى ماضي وحاضر الأوروبيين وعبقريتهم الموحية، بدل الإشارة إلى الهوية العربية وأحوالها الاجتماعية والثقافية كما هو الشأن بالنسبة إلى عبارة: «القشة التي قصمت ظهر البعير» ذات الجذور العربية.

أما عبارات: (مناقشات رأساً لرأس = Discussion tête à tête) (لعب دوراً = Jouer un role) (وضع النقط على الحروف = Mettre les points sur les i) فهي كلها تعابير فاحشة أدخلت الشطط إلى اللغة العربية وهددت سلامتها وحسَّها البلاغي البارع، لما تضمنته من حشو ومغالطات ترجع إلى فقدان متكلمي اليوم للحس اللغوي الذي ظلت العربية تزهو به على سائر اللغات طيلة القرون الأولى.

حيث إن التعابير العربية السليمة للعبارات المترجمة السابقة هي: (مناقشات على انفراد) (أدى دوراً) (توضيح القضية) أما الاكتفاء بـ(وضع النقاط على الحروف)، فهي عبارة تعكس مبلغ جهلنا بالأحرف العربية الأخرى التي توضع النقاط تحتها (الباء ـ والجيم ـ والياء) فماذا نقول إذن عنها؟ لا شك أن متعلم اليوم إذا أورد مثل هذه العبارة، «وضع النقط تحت الأحرف» سيتعرض لسخرية مدرِّسه، مع أن هذه العبارة، تنبه الغَفَلَةَ إلى وضع من أوضاع اللغة العربية التي لا تكتفي بوضع النقاط على الحروف، وإنما تضعها أيضاً تحت الأحرف.

وعلى الجملة فإن تلك «الأساليب غريبة عن العربية، فهي بنت ظروف وأحوال اجتماعية لم توجد في هذا الشرق العربي... فقد ترجمت وحشرت في العربية، وكان سبب ذلك كله جهل من تصدى للترجمة بأصول العربية وفنون القول فيها، فلم يتيسر لهم نقل الأفكار الغربية بأسلوب عربي. ولو عرف هؤلاء بلاغة العرب، وعرفوا أسرارها لما اندسَّت في العربية أساليب غريبة عنها»(١).

اللغة إذن ليست مجرد وسيلة حاملة للثقافة، وإنما هي آصرة تؤكد خصائص الجماعة التي تتكلمها. وقد فهم الغربيون

---

(١) دراسات في اللغة، د. إبراهيم السامرائي ص٢٤٠، ط ١٩٦١م، مطبعة العاني، بغداد.

هذه الحقيقة فكانوا يتناولون ما ينتجه العرب المسلمون عندما سادوا العالم «فيمضغونه ويبتلعونه محولين الصالح منه إلى كيانهم الغربي. أما الشرقيون في الوقت الحاضر، فيتناولون ما يطبخه الغربيون، ولكنه لا يتحول إلى كيانهم، بل يحولهم إلى شبه غربيين، وهي حالة أخشاها، وأتبرم منها؛ لأنها تبين لي الشرق تارة كعجوز فقد أضراسه، وطوراً كطفل من دون أضراس!»[1].

اللغة العربية الفصحى مدعوة في وقتنا الحاضر إلى خوض حرب ضروس في إطار حروب الثقافات الزاحفة جيشاً جراراً لتشتيت الكيانات واستعباد الأمم من خلال سلب اللغة التي تركها لهم الأجداد. وهي حرب يجب أن تدور رحاها في جبهتين:

أ ـ الجبهة الأولى:

وهي جبهة المحافظة على أصالتها وتراثها المفرداتي والتركيبي، الذي ضمن لها البقاء والاستمرار في كافة المظاهر الفكرية والوجدانية والعلمية التي تقوي وجودها بين الأمم، وتصون كيانها الذاتي، عربية صافية صفاء أعين الديكة، لا أثر فيها للعجمة التي تورث النفاق كما نبَّه الرسول الكريم ﷺ المتكلمين بالعربية قائلاً: «**من يحسن أن يتكلم بالعربية، فلا يتكلم**

---

(١) جبران واللغة العربية ص٢٥٠.

بالعجمية، فإنه يُوَرث النفاق»[1]؛ لأن التسامح في استدخال لغة الفرنجة، واستعمال ما لا أصل له في العربية يوسع الخرق على الراقع، ويزيد شقة التباعد بيننا وبين لغة القرآن المقدس مع مرور السنين وكرور الأعصر، وتلك هي «الهوة الجهنمية التي نحبو إليها اليوم، وقد يصبح الحبو عدواً في الغد»[2].

إذا لم يشهر متنطسو هذه الأمة وخناذيذها اللافتة الحمراء في وجه أشكال الزيغ والتهجين التي تهدد سلامة العربية، من خلال تشبيه اللغة بالكائن الحي، وبالتالي يجب أن يصيبها ما يصيبه من صحة واعتلال وموت وفناء؛ لأن كل كلمة في اللغة محكومة بأجل مسمى، تماماً كما هو الشأن بالنسبة إلى الكائن الحي، وهي قاعدة تناقض حكمة الله في إنزال القرآن الكريم بلسان عربي مبين لا يعتريه التغيير والتبديل أبد الدهر، كما جاء في سورة الحِجْر، آية رقم ٩: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، كما شرفها الله سبحانه وتعالى بالإعجاز والبيان، وأبقى عليها أثره الناصع الذي يُعد بلا ريب من أعلاق العربية النفيسة

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، تقي الدين بن تيمية ص١٨٩، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، دار العلم للملايين، بيروت.

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، جواب: إدوارد مرقص، عن الكلمات غير القاموسية، مجلد رقم ٨، ص٧٤٠، السنة الثامنة، ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م، دار صادر، بيروت.

الموسومة على الدوام بالأصالة والبلاغة والإصابة من دون عوج كما يتبدى من سورة الزمر، آية رقم ٢٨: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ...﴾.

ولقد ظل ارتباط العربية بالقرآن فأكسبها ذلك الارتباط بعض قدسيته، وأقر بذلك غير واحد من المستشرقين ـ والفضل ما شهدت به الأعداء ـ الذين اجتهدوا في البحث عن أطوار حياتها من طفولة، فشباب، ثم شيخوخة وهرم، كما هو الشأن بالنسبة إلى اللاتينية، إلا أنهم لم يظفروا من البحث والتنقيب إلا بما يظفر به باسط يديه إلى الماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغه.

فبقيت العربية شامخة حتى أتى علينا حين من الدهر تحجرت فيه العقول، وضاق فيه ميدان الابتكار والتوليد، وتوقفت فيه العبقرية العربية مقصرة الأخذ والاستشهاد على زمن دون آخر، فحجرنا واسعاً، ومنعنا ما كان مباحاً، وأقفلنا طرقاً شتى كانت مسلوكة، فلم نزد في ذخيرة اللغة العربية سوى كلمات محدودة، تارة مقترضة دخيلة، مخلَّة بشرائط المنفعة والتوافق مع اللغة المتلقية، فظلت قلقة جوفاء بلا روح لا تشبع الوفاء الدلالي، وليس لديها أي سهم تحقق من خلاله التكيف اللغوي كما هو الشأن بالنسبة إلى الاصطلاحات الآتية: الفاكس ـ الميترو ـ الكومبيوتر ـ الريكبي ـ الإنترنيت ـ الروبو ـ التيليفزيون ـ الشامبوان ـ التلكس ـ الشيك ـ كلينيك ـ كْلافْيي ـ كود ـ دياكروني ـ مونيم ـ فونيم ـ سيمونتيك...

وتارة أخرى معربة على طريقة جالب التمر إلى هجر، مثل اصطلاحات: الخرق والانزياح بدل اصطلاح (العدول) الذي يفوح عبيره من المصنفات العربية التراثية، وقُل الشيء نفسه بالنسبة إلى اصطلاح (الكحول) المعرب عن لفظة (Alcohol) وهي اللفظة التي اقترضها الغرب من الثقافة العربية التي كانت تسمى كل مادة مسكرة باسم (الغَوْل) كما نطق بذلك القرآن الكريم في سورة الصافات آيتي ٤٦ و٤٧، الذي وعد عباده المخلصين بالشراب من كأس معين ﴿بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾ غير أن الغربيين قد ألبسوها من ثيابهم الغربية ما جعلها تنصهر مع أخواتها، وتتحول إلى كيانهم بعد أن أصبح صوت (الغين) = (الكاف) مستقرة على ما هو عليه الآن (Alcohol) ثم جاء المترجمون فعَربوها على شاكلة الممهورة إحدى خَدَمَتيْها. ومن يضلل الله فليس له من مرشد!!!.

ب ـ الجبهة الثانية:

وهي جبهة التطوير من الداخل، يجب على العربية أن تخوض غمارها مؤمِنة بقدراتها القتالية الفائقة على التوليد والتجديد والاقتراض الواعي بضرورة احتواء التطورات العلمية المتسارعة، لأجل دخول سوق المنافسة اللغوية مع لغات العالم التقني.

إنها جبهة تتطلب ولا شك علماء مخضربين متنطسين توافرت لديهم ملكة استواء اللسانين بالنسبة إلى اللغتين: المانحة والمُستقْبِلة، حتى تربح العربية الصفقة كما ربحتها في العهود الأولى، عندما استدخلت الألفاظ الأعجمية إلى لغتها وتصرفت فيها بما يلائم طبيعتها، لا تشعر في استخدامها نبواً ولا أمْتاً لأنها تمكنت من التمتع بما تمتعت به أخواتها العروبيات من خفة في النطق، وأصالة في اللفظ، ودقة في الوصف.

ويُعد هذا من «علامة حيويتها واستجابتها إلى ما يجد في الحياة ومتطلباتها، وقد جاء الإسلام بجديد فاحتاجت اللغة إلى جديد في اللغة، فاخْتَرَعت ألفاظاً قرآنية، لم يكن العرب يعرفونها»[١] لكنها ظلَّت متميزة بوضوح العلاقة بين الدالِّ والمدلول، مقتدية بالأوزان والطرق والأساليب المألوفة في العربية، ولذلك اشتقوا منها اشتقاقات تزكي عروبيتها وتلبي الحاجة في التعبير عن الشيء الواحد في أطوار مختلفة، بل إن السرعة التي انضمت بها إلى حظيرة العربية، ولا سيما الألفاظ المعربة في القرآن مثل: الصراط ـ استبرق ـ سندس ـ قرطاس ـ

---

(١) مظاهر التعريب، د. محمد بن تاويت، مجلة اللسان العربي، المجلد العاشر، الجزء الأول ص٥٧، ذو القعدة ١٣٩٢هـ/ يناير ١٩٧٣م، المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي، الرباط.

قسورة ـ فردوس ـ سلسبيل ـ مشكاة ـ بيع ـ سرادق ـ طور ـ يم ـ دينار ـ جهنم ـ سجيل ـ غساق ـ قسطاس ـ إبريق ـ حج ـ سبت ـ شيطان ـ السلوى ـ المن ـ إفك ـ بعير ـ تنور ـ تين ـ جنة ـ زيتون ـ سقر ـ سفر ـ درهم. . . تؤكد بلا شك استساغة المجتمع اللغوي لها وتفريع مواد لغوية أخرى منها.

يقول الإمام الجويني في تعليل كلمة (استبرق) الموجودة في القرآن: «ولا يجد العربي لفظاً واحداً يدل عليه؛ لأن الثياب من الحرير عرفها العرب من الفرس، ولم يكن لهم بها عهد. ولا وضع في اللغة العربية للديباج الثخين اسم، وإنما عرَّبوا ما سمعوا من العجم، واستغنوا به عن الوضع لقلة وجوده عندهم وندرة تلفظهم به. . . فعلم بهذا أن لفظ «استبرق» يجب على كل فصيح أن يتكلم به في موضعه، ولا يجد ما يقوم مقامه»(١).

تماماً كما هو الشأن بالنسبة إلى لفظة (خندق) التي سمعها الرسول ﷺ من سلمان الفارسي «فاستفسره عن معناها، وهي اسم مفعول من (كندن) الفارسي بمعنى الحفر، فكانت (كنده)

---

(١) المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب، جلال الدين السيوطي، تقديم وتحقيق: د. التهامي الراجي ص٦٤. صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب.

وعربت بأن أبدلت (الهاء) التي لا تنطق (قافاً)، فصارت خندق، فتقبلها النبي ﷺ، ولم يأنف من استعمالها، بل اشتق منها خندقوا، فسميت الغزوة بغزوة الخندق»[(١)].

يتضح مما سبق أن على اللغة أن تبتكر وتولد وتعرب وتقترض ما لا معدل لها عنه، وأنها لا ينبغي أن تحد بزمن، وبنسل خاص ـ ولا سيما في زمن العولمة الموسوم بالسرعة في الاتصال والاحتكاك بين الجماعات البشرية ـ تحتقن في المصادر فتأجن من خلال تعطيل الأقلام عن الامتياح من أحواضها ما يهب الحياة لكل بذرة من بذورها المستفرهة.

غير أن أي مساعدة تنموية للغة لا بد لها من أسس ودواع؛ لأن أي ازدياد غير مشروط ينطوي على غير قليل من الوبال على اللغة المقترضة، ولا سيما بالنسبة إلى المجازات الغريبة التي تنكرها العربية والذوق العربي السليم.

وأي جريرة أكبر من تعكير صفاء العربية وإدخال الشطط إلى تعابيرها، فتشيع فيها الألفاظ الهجينة التي لا علاقة لها بالدوحة العربية الوارفة الظلال، ثم تزحف جيوشها الجرارة متصدرة الصفوف لتقضي على ما تبقى لها من سحر حلال في مستنقع العجمة الذي يغمرها سجيس المَلَوان بكثير من الاستعمالات المنحرفة القلقة في أماكنها فيضيع هدف

---

(١) مظاهر التعريب، د. محمد بن تاويت ص٣٩.

التطوير والتجديد نتيجة التساهل المفرط في الاقتراض الذي يجبر اللغة على الإفلاس.

وهي الحقيقة التي تنبه إليها الغربيون. فهذا السير (جون تشيك = John cheke) يرفع عقيرته في سنة (١٥٥٧م) داعياً إلى المحافظة على الإنجليزية حيث قال: «يجب أن تكتب لغتنا نظيفة ونقية، وألا تخلط وتشوه بالاقتراض من لغات أخرى، وإن لم ننشغل بتوليد الألفاظ، وظللنا نقترض ولا ندفع، فإن اللغة ستكون مجبرة على الإفلاس»[١].

عندما لا نستطيع أن نعبر بطلاقة عن أي مضمون تفرضه علينا منتجات عصر العولمة، وبذلك نفقد الارتباط والحميمية بيننا وبين عربيتنا بالنسبة إلى المعارف التي لا نمتلكها إلا بلغة أجنبية، وبكيفية مشوهة «لأن القارئ يستوعب بلغته (لغة الأم) أكثر مما يمكن أن يستوعبه باللغة الأجنبية مهما تكن معرفته بتلك اللغة، يضاف إلى هذا أن الفكر الأصيل لا يخلق في الأمة إلا إذا كانت تعلم بلغتها وتكتب وتؤلف بلغتها أيضاً»[٢].

---

(١) اللغة والاقتصاد، فلوريان كولماس، ترجمة: د. أحمد عوض، مراجعة: عبد السلام رضوان، مجلة (عالم المعرفة) الكويتية، عدد ٢٦٣، ص٣٣٠، نونبر ٢٠٠٠م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

(٢) التعريب جهود آفاق، د. قاسم سارة ص٢٠٧، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، دار الهجرة، دمشق، بيروت.

المعركة إذن تحتاج إلى جهود أولي العزم من هذه الأمة، لكشف مواطن الخلل لدى أعداء العربية اللُّد الذين أعمى الغرب بصيرتهم، فأصبحوا يعلكون العربية علك اللجام، وينفثون من أقلامهم المقحوطة سموماً كادت أن تصيب العربية في المِحَز، نتيجة تهجير سيول قُحافة من الألفاظ الأعجمية يلطخون به ثوب العربية الناصع البياض، أملاً في تكثير مفرداتها، وإثراء معجمها، متناسين أن هذا الثوب كان من الاتساع والفضفضة الذي دعا المتنطسين إلى تغيير دلالات كثير من الألفاظ التي تطلق على المسمى الواحد، لسد حاجات علمية حضارية ودينية دعت الضرورة إليها على شاكلة الألفاظ الآتية: الرسم ـ النفاق ـ الكفر ـ الصلاة ـ الهاتف ـ تبدى ـ تنزه ـ القلم ـ القريض. . . أو من خلال تغيير أوضاع اللفظة الواحدة بواسطة الاشتقاق والتوليد والارتجال لسد الحاجة وتعويض النقص في التعبير عن بعض المبتكرات: مذياع ـ دواسة ـ ثلاجة ـ مصولة ـ شرطي ـ ناسوخ ـ برقية ـ الجمعة ـ سحاليل ـ الكتر ـ المجلة ـ الكتر (بفتح وكسر الكاف) الشبكة العنكبوتية ـ وهلم جرّاً.

هذه ثمرة بعض التأملات في مسألة تطور اللغة العربية، وقد اجتزأت من ذخائرها الفياضة بالإشارة إلى قليل، اتخذته دليلاً على طواعيتها وقدرتها على مواكبة كل التطورات التي يشهدها العالم المعاصر، إذا ما نحن أخذنا بأسباب التطوير من داخل العربية مبتعدين جهد المستطاع عن الدعوات التي تملأ

الدنيا صراخاً بهجر لغة الأجداد، التي لا تصلح إلا للتحنيط التاريخي الذي يودع في المتاحف بعد أن جفت مجاريها، ولم يبق منها سوى أكوام رمال، وخلاء تعفتها الروامس، لذا طوَوْا كشحهم عنها، وازْوَرُّوا عنها مطلقين عنان أقلامهم في مستنقع العاميات واللغات الأجنبية، يقتبسون منها بعرات يحسبونها قلائد فريدة منتضية من معدنها ليطوقوا بها جِيد العربية العُطْل. ومن يضلل الله فليس لَه مِنْ مرشد!!.

❒ ❒ ❒

الفَصْلُ الثَّانِي

مزايا وخصائص اللغة العربية

مزايا وخصائص اللغة العربية

اللغة العربية بناء شامخ على درجة عالية من الكمال والاتساع الذي يجمع بين كثير من خصائص اللغات العالمية، سواء من حيث قدرتها التعبيرية عن المعنى المراد باللفظ الدقيق الذي لا يتجاوزه، ولا يقصر عنه، أو من حيث طواعيتها للاشتقاق الذي يزيد من قدرتها على التعبير عن الحاجات المتزايدة، أو من حيث تركيبها الداخلي الذي يتيح للفظة الواحدة أن تتقدم تارة وتتأخر أخرى تبعاً لمقصديات المتكلم، أو من حيث قدرتها التمثيلية الفائقة في نقل الأصوات المسموعة إلى أصوات مرئية أشدَّ تمثيلاً، ناهيك عن قابليتها الفريدة في الانتقال من أصل الوضع اللغوي المُحَس، إلى الدلالة المعنوية المجردة، بَلْه ما يُمِدُّها بِهِ نظامها الإعرابي من التمييز بين المعاني المشتبهة. وهي كلها خصائص ربانية لم تتوفر لسوى لغة القرآن المنزه بين الألسنة عن أي شائنة.

وقد شهد بهذا الفضل كثير من الباحثين الأجانب، فهذا المستشرق (ماسينيون) يؤكد أن «في العربية استعداداً للرؤية الجوانية، يتذوقه من نشأوا على التحدث بها.

وفي العربية بفضل تركيبها الداخلي، وطراز الخلوة الذي توحي به، قدرة خاصة على التجريد والنزوع إلى الكلية والشمول. . . ثم إن اللغة العربية لغة الغيب والإيحاء: تعبر بجمل قصيرة مركزة عما لا تستطيع اللغات الغربية أن تعبر عنه إلا في الجمل الطويلة الفضفاضة»[١].

وهي النظرة نفسها التي أثبتها المستشرق الفرنسي (هنري لوسيل) مؤكداً أن العربية تتيح للناطق بها «ثروة من الاشتقاق من الأصل الواحد، وتقدم العربية أيضاً نسقاً من قواعد الإعراب بسيطاً، وفيه قدر كبير من المرونة، كما تقدم أساليب من تركيب الكلام تجمع بين السذاجة والدقة ونسقاً من الأفعال يتسم بالبساطة»[٢].

وقد أبهرت هذه الخصائص والمزايا المستشرق الفرنسي (إرنست رينان) قائلاً: «فهذه اللغة. . . تبدو لنا فجأة بكل كمالها ومرونتها وثروتها التي لا تنتهي، لقد كانت هذه اللغة منذ بدايتها على درجة من الكمال تدفعنا إلى القول بإيجاز: إنها منذ ذلك

---

(١) المؤلفات الصغرى، ماسينيون، ص٦٢٥. نقلاً عن مقال: اللغة العربية وطرائق تدريسها، د. أحمد حقي الحلي ص٣٦٥. ندوة اللغة العربية والوعي القومي، مركز دراسات الوحدة العربية بالاشتراك مع المجمع العلمي العراقي ومعهد البحوث والدراسات العربية.

(٢) المرجع نفسه ص٣٦٥.

الوقت حتى العصر الحاضر لم تتعرض لأي تعديل ذي بال، فاللغة العربية لا طفولة لها، ولا شيخوخة أيضاً منذ ظهرت على الملأ، ومنذ انتصاراتها المعجزة، ولست أدري إذا كان يوجد مَثَلٌ آخر للغةٍ جاءت إلى الدنيا مثل هذه اللغة»[1]، التي تبز سواها مرونة وسعة وقدسية. فماذا إذن عن هذه الخصائص والمزيات؟

١ ـ الذخيرة اللغوية:

لا مراء في أن اللسان العربي يُعَدُّ من أوسع الألسنة حتى قيل: «كلام العرب لا يحيط به إلا نبي»[2] وقد أوقع العرب أكثر من لفظ على المعنى الواحد ليبرهنوا على توسعهم في مجال القول، إلى درجة أنهم وسموا المعنى الواحد بمئين من الألفاظ. فهذا أبو عبد الله بن خالويه الهمذاني يقول: جمعت للأسد خمسمائة اسم، وللحية مائتين[3]. وذلك حمزة الأصبهاني جمع

(١) تأثير اللغة العربية في نشأة اللغة الفارسية الحديثة وتطورها، د. محمد نور الدين عبد المنعم، مجلة الفيصل، عدد ٢٥٨، ص٧٢، ذو الحجة ١٤١٨هـ/ أبريل ١٩٩٨م.

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمٰن جلال الدين السيوطي، شرح وتعليق: محمد جاد المولى بك ـ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ علي محمد البجاوي (١/ ٦٤)، ط ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت.

(٣) المصر نفسه ١/ ٣٢٥.

من أسماء الدواهي ما ينوف على أربعمائة، ذاكراً أن تكاثر أسماء الدواهي من الدواهي، أما الأصمعي فقد أكد في مجلس هارون الرشيد أنه يحفظ للحجر سبعين اسماً.

وقد ألَّف العلامة مجد الدين الفيروزآبادي صاحب القاموس كتاباً سماه: «الروض المسلوف في ما له اسمان إلى ألوف». ومن جملة ما أورده من أسماء العسل الذي جمع له ثمانين اسماً: الشوْب ـ والحَمِيت ـ والوَرْس ـ والنسيل ـ والشُهد ـ والماذي ـ والسلوى ـ والسليق ـ والسلوان ـ والجَنَى ـ والسُلاف ـ والمَج ـ والرحيق ـ والجُث... ومن أسماء السيف ما ذكره ابن خالويه في شرح الدريدية: الصارم ـ والمشرفي ـ والحسام ـ والمُنْصل ـ والجراز ـ والقضيب ـ والمِخْصل ـ والقاضِب ـ والمُهَند ـ والصقيل ـ والمِهْذم... وغيرها مما يطول ويرهق.

وقد بلغت بهم العناية في الإصابة في الوصف والتعبير أنْ سمُّوا «شرب الغداة صَبُوحاً وشرب العشية غَبُوقاً، وشرب نصف النهار قيْلاً، وشرب أول الليل فحمة، وشرب السحر جاشرية، وكما قالوا: إن السراب لا يكون إلا نصف النهار، والفيء لا يكون إلا بعد الزوال، والمقيل الاستراحة وقت الهاجرة، والسمر حديث الليل خاصة، والطروق الإتيان ليلاً في قول أكثرهم»(١).

---

(١) درة الغواص في أوهام الخواص، القاسم بن علي بن محمد الحريري، تحقيق وتعليق: عبد الحفيظ فرغلي وعلي القرني ص٨٧ =

كما سموا الشمس وقت طلوعها: الغزالة، وعند الغروب: الجونة. وخصُّوا ألفاظاً بمعانٍ محددة، حيث إن لفظ (تحسَّس) لا يستعمل إلا في الخير كما في قوله تعالى من سورة يوسف، آية رقم ٨٧: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ...﴾، أما (تجسَّس) فلا يستعمل إلا في الشر كما في قوله تعالى من سورة الحجرات، آية رقم ١٢: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا...﴾.

كما أن الله ﷻ «لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع الظاهر، والناس لا يذكرون السغب، ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر[1]؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة، وأكثر الخاصة، لا يفصلون بين ذكر المطر، وبين ذكر الغيث»[2].

= ـ ٨٨، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م دار الجيل، بيروت، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

(١) انظر آيات المطر في: القرآن الكريم وقد أراد بها الله ﷻ الشر وهي تباعاً: سورة النساء: آية ١٠١، الأعراف: آية ٨٣، والأنفال: آية ٣٢، وهود: آية ٨١، والحجر: آية ٧٤، والفرقان: آية ٤٠، والشعراء: آية ١٧٣، والنمل: آية ٥٨، والأحقاف: آية ٢٤. أما آيات الغيث الذي يحيي الأرض وينشر الرحمة فنذكر منها: سورة لقمان: آية ٣٣، والشورى: آية ٢٦، والحديد: آية ٢٠.

(٢) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: حسن السندوبي ١/ ٤٠، دار الفكر، بيروت.

كما يتضح من هذه القصة التي يرويها إسحاق بن أيوب حيث قال: «اعتمرت في رجب سنة خمس ومائة، فصادفني ابن ميادة بمكة وقدمها معتمراً، فأصابنا مطر شديد تهدمت منه البيوت، وتوالت فيه الصواعق، فجلس إلي ابن ميادة الغد من ذلك اليوم: فجعل يأتيني قوم من قومي وغيرهم، فأستخبرهم عن ذلك الغيث فيقولون: صعق فلان، وانهدم بيت فلان. فقال ابن ميادة: هذا العيث لا الغيث. فقلت: فما الغيث عندك فقال:

سحائب لا من صيب ذي صواعق ... ولا محرقات ماؤهن حميم

إذا ما هبطن الأرض قد مات عودها ... بكين بها حتى يعيش هشيم»[1]

وقد خصَّت العرب بعض الألفاظ بدلالات خاصة أفرغت فيها، فقالوا: شاب شوباً لمطلق الخلط، ولا سيما في السوائل كما في قوله تعالى من سورة الصافات، آية رقم ٦٧: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وشاب شيباً للخلط الخاص بين اللونين في الشعر: هما البياض والسواد كما في قوله تعالى من سورة مريم، آية ٤: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ كما قالوا: البون المسافة، والبين

(١) رنات المثالث والمثاني في روايات الأغاني (٣/ ٦٣٠ ـ ٦٣١)، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، وهي طبعة خاصة مهداة إلى الحسن الثاني ملك المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

البعد والفراق. وقالوا: ترب إذا افتقر، وأترب إذا استغنى. وقالوا: جزرت الشاة وحلقت العنز. وقالوا: بنو فلان سواء إذا استووا في خيرٍ أو شر، فإذا قيل: سواسية لم يكن إلا في الشر. وقالوا: النيف من واحدة إلى ثلاث، والبضع من أربع إلى تسع[(١)].

كما ميَّز العرب الرصفاء بين ما يتخذ لتقديم الطعام عليه فسموه (خوان) بضم وكسر الخاء، وعندما يحضر عليه الطعام فهو (مائدة) كما يتجلى ذلك في كلام الحواريين الذين تحدوا عيسى عليه السلام بأن يستنزل لهم مائدة من السماء يأكلون منها وتطمئن قلوبهم، كما ورد ذلك في سورة المائدة، آيتان ١١٢ و١١٣: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا...﴾.

وقالوا: «فزع: إذا أتاه الفزع، وفُزع عن قلبه إذا نحي عنه الفزع، قال الله جل ثناؤه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣] أراد والله أعلم: أخرج منها الفزع»[(٢)].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور (٩/ ٣٤٢)، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، دار صادر.

(٢) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أبو الحسن أحمد بن فارس، تعليق: أحمد حسن بسج ص١٥٣، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية، بيروت.

وقالوا: «العام لا يكون إلا شتاء وصيفاً، وليس السنة والعام مشتقَّين من شيء واحد، فإذا عددت من اليوم إلى مثله فهو سنة... فالعام أخص من السنة. فعلى هذا تقول: كل عام سنة، وليس كل سنة عام»[1]. وقال أغلب المتنطسين في اللغة: «الاسم العام في ظروف الجلود لِلبَنِ وغيره الزق، فإن كان فيه لبن فهو وطْبٌ، فإن كان فيه سمن فهو نِحْي، فإن كان فيه عسل فهو عُكة، فإن كان فيه ماء فهو شَكْوة وقِرْبة، فإن كان فيه زيت فهو حميتٌ»[2].

كما ميَّز العرب الخناذيذ بين الشيء الواحد يحدث في وقتين مختلفين فقالوا: هملت الغنم والإبل نهاراً، ونفشت ليلاً «ولا يكون النفش إلا بالليل»[3]. كما ميَّز الرصفاء بين هيئات الجموع من اللفظ الواحد، فقالوا: الأيدي جمع للعضو المعروف (يد)، والأيادي كناية عن النعمة، والأمات جمع أم لغير العاقل، وأمهات لجمع العاقلين. وجمع الأمر الذي هو ضد النهي: أوامر، وجمع الأمر الذي هو بمعنى القصد والشأن: أمور.

---

(١) شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، (٨/ ٤١٢)، دار الفكر.

(٢) المزهر (١/ ٤٤٣ و٤٤٤).

(٣) لسان العرب (٦/ ٣٥٧).

وقد وقفتُ في القرآن على لطيفة لم أجدها في غيره، حيث إن كل الآيات القرآنية التي وردت فيها لفظة ﴿ٱلْأَعْيُنِ﴾ هكذا تدل على العين المبصرة، أما جمع ﴿ٱلْعُيُونِ﴾ فلم تدل على سوى المياه الجارية[1]. ويعد التوزيع في اختيار أبنية الجمع، لاختلاف الدلالة من أوكد الأدلة على سعة العربية وكمالها.

وقبل أن أختم هذه الفقرة أجتزئ من مزهر السيوطي بعض أوصاف اللبن التقطها له الأصمعي تبعاً لما يطرأ عليه من تغيرات: «أول اللبن اللبأ... ثم الذي يليه المُفْصِح، يقال: أفصح اللبن إذا ذهب اللِبأ عنه، ثم الذي ينصرف به عن الضرع حاراً: الصريف، فإذا سكنت رغوته فهو الصريح، والمَحْض

---

(١) بالنسبة إلى جمع (أعين) يمكن الإشارة إلى الآيات القرآنية الآتية: سورة الأعراف: آيات رقم ١١٦ و١٧٩ و١٩٥، وسورة المائدة: آية ٨٥، وسورة الأنفال: آية ٤٥، وسورة التوبة: آية ٩٣، وسورة هود: آيتان ٣٧ و٣١، وسورة الكهف: آية ٩٧، وسورة الأنبياء: آية ٦١، وسورة الفرقان: آية ٧٤، وسورة الأحزاب: آيتان ١٩ و٥١، وسورة الزخرف: آية ٧١، وسورة الطور: آية ٤٨، وسورة القمر: آية ١٤.
أما بالنسبة إلى جمع (عيون) فتمكن الإشارة إلى: سورة الحجر: آية ٤٥، وسورة الشعراء: آيات ٥٧ و١٣٤ و١٤٧، وسورة يس: آية ٣٣، وسورة الدخان: آيتان ٢٥ و٥٢، وسورة الذاريات: آية ١٥، وسورة القمر: آية ١٢، وسورة المرسلات: آية ٥١.

ما لم يخالطه ماء حلواً كان أو حامضاً، فإذا أخذ شيئاً من الريح فهو خامط، فإن أخذ شيئاً من طعم فهو مُمَحل، فإذا كان فيه طعم الحلاوة فهو قُوهَة... فإذا خثر فهو الرائب...»[1] وهلم جرّاً من الأوضاع التي يطول تتبعها ويرهق، ولا سيما بالنسبة إلى هذا البحر اللجي من الثراء الذي لا ينكش.

٢ ـ التمييز بين المعاني بواسطة حركات الإعراب، وحركات المباني:

يُعَدُّ الإعراب حلي اللسان العربي. قال مالك بن أنس: «الإعراب حلي اللسان، فلا تمنعوا ألسنتكم حليها»[2]. فهو من الخصائص المميزة بين المعاني المتكافئة في اللفظ، ومن خلاله تتوضح مقاصد المتكلمين، حيث تقوم الحركات، سواء كانت حركات الإعراب، أو حركات المباني ـ بالتمييز بين المعاني ـ كما يتضح من المثال الآتي: (لا تأكل وتشرب) هل يراد به النهي عن الفعلين الذي يقتضي جزمهما، أم النهي عن الأكل وإباحة الشرب، وهو الأمر الذي يستوجب جزم (لا تأكل) ورفع فعل (تشرب)، أم النهي عن اقترانهما مع جواز فعل كل

---

(١) المزهر (١/ ٤٤٠ و٤٤١).

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القلقشندي، شرح وتعليق: محمد حسين شمس الدين (١/ ٢٠٥)، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، دار الفكر.

واحد منهما على انفراد، الأمر الذي يستدعي جزم الأول ونصب الثاني. من أجل هذا أجمع القدماء ـ إلا من شذ منهم ـ على أهمية الإعراب في الدلالة على المعاني، حيث إن وجود علامة التنوين، أو الاكتفاء بحركة واحدة في آخر الكلمة يكون مسؤولاً عن تبدل المعنى.

كما يتضح ذلك من المناظرة التي دارت بين أبي يوسف، صاحب أبي حنيفة، وبين الكسائي في مجلس هارون الرشيد، حيث ألقى الكسائي على أبي يوسف المسألة الآتية: «ما رأيك يا أبا يوسف في رجلين قال أحدهما: (أنا قاتِلُ غلامك) بإضافة قاتل على الغلام، وقال لك الآخر: (أنا قاتلٌ غلامَك) بتنوين قاتل، ونصب الغلام به، أيهما كنت تقتص منه؟ فقال أبو يوسف: كلاهما، فقال له الكسائي: أخطأت! القاتل هو الأول، أما الثاني فإنه يتوعد، ولم يقتل بعد»[1]. إلى غير ذلك من العبارات التي لا يمكن الإحاطة بها، والتي لا تخفى أهميتها على كل ذي نهية في التفريق بين أغراض المتكلمين كما في قول القائل: (هذا ميتاً أفضل منه حيّاً) يريد إظهار الحال، أو قوله: (هذا ميت أفضل منه حي)، يريد أنهما اثنان.

---

(١) اللغة العربية بعض خصائصها... محمد نعمان الدين الندوي، مجلة (الفيصل) عدد ٢٥٥، ص٧٢، رمضان ١٤١٧هـ/ يناير ١٩٩٨م، السعودية.

أما بالنسبة إلى حركات المباني التي تعرض لِوَسَطِ الكلمات في اللغة العربية، فإن ادعاء استقراء أحوالها، ومخر عبابها يُعد بلا ريب بحراً مسجوراً لا يمكن بلوغ قواصيه، لذلك أكتفي باستفراه بعض النماذج أجعلها دليلاً على ثراء اللغة العربية، منها لفظة: الخِدْمات ـ بكسر الخاء ـ؛ التي تعني المهمات، ولفظة الخَدَمات ـ بفتح الخاء ـ؛ التي تعني: جماعة القوم، أو الساق، أو الخلخال. «وفي حديث خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس: الحمد لله الذي فضَّ خَدَمتكم؛ قال: فض الله خدمتهم؛ أي: فرَّق جماعتهم؛ الخدمة بالتحريك: سير غليظ مضفور مثل الحلقة يُشد في رسغ البعير، ثم يشد إليها سرائح نعله، فإذا انفضت الخدمة انحلت السرائح وسقطت النعل، فضرب ذلك مثلاً لذهاب ما كانوا عليه وتفرقه...»[1] وفي المثل: كالممهورة إحدى خَدَمتيْها. ومثل هذا كثير في اللغة العربية، أكتفي منه بالإشارة إلى بعض القبسات حيث قالوا: الخَصلة بفتح الخاء: خُلق في الإنسان والخُصلة بضم الخاء: الشَّعْرُ المجتمع. كما قالوا: السراط بكسر السين: الطريق الواضح، والسراط بضم السين: سيف قطاع. وقالوا: الهجرة بفتح الهاء: السمينة التامة، والهجرة بكسر الهاء: الخروج من أرض إلى أخرى. وقالوا: الصرعة بفتح الراء: الذي يصرع الناس بقوته، والصرعة بسكون الراء: من يصرعه غيره.

---

(١) لسان العرب (١٢/ ١٦٨).

أما إذا انتقلنا إلى ما يسمى بالمثلثات اللغوية، فإن العربية ترينا عجباً في التفريق بين المعاني تبعاً لاختلاف حركة أحد الأحرف في الكلمة الواحدة.

يقول أبو علي محمد بن المستنير بن أحمد المعروف بقطرب أحد نحاة ولغوِيِّي البصرة (توفي زهاء ٢٠٦هـ/ ٨٢١م)[١]:

إنَّ دُمُوعِي غَمْرٌ وليْس عِنْدي غِمْرٌ
يا أيُّهذا الغُمْر أقصرْ عن التعتُّبِ

ويشرح العلامة عبد الواحد بن عبد العزيز المكناسي (توفي بالمدينة المنورة زهاء ٨٨٠هـ) صاحب منظومة «المورث لمشكل المثلث» كلمات المثلث السابق قائلاً[٢]:

فالغَمْر: ماء غَزَرَا والغِمْر: حقد سترا
والغُمْر: ذو جهل سرى فيه ولم يُجَرب

وفي مثلث آخر لقطرب الذي يقول فيه:

بدا وحيى بالسَّلام رمى عَدُوِّي بالسِّلام
أشار نحوي بالسُّلام بكفه المختضب

يقول عبد الواحد بن عبد العزيز المكناسي[٣]:

---

(١) من تراث التأليف اللغوي بالمغرب، أحمد الدغرني ص٤٩، ط ١٩٨٨م، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.

(٢) المرجع نفسه ص٢٦.

(٣) نفسه ص٢٦.

تــحــيــة الــمــرء: الــسَّــلام   واســم الــحــجــارة الــسِّــلام
والـعـرق في الـكـف: الـسُّلام   رووه فــي لــفــظ الــنــبــي

ثم يتابع المكناسي شرح مثلثات قطرب قائلاً[1]:

ريــق الــحــبــيــب: الــظَّــلــم   وفــي الــنــعــام: الــظِّــلــم
فَــحْــل، وأمــا الــظُّــلَــم   فــالــجُــور مــن ذي غــضَــب

٣ ـ القدرة على التجريد:

تُعَدُّ اللغة العربية ـ تبعاً لاستقراء أحوالها ـ من أكثر اللغات قابلية للانتقال من الدلالة على الشيء المُحَس، إلى الدلالة على المجرد المعنوي.

هذه الميزة تؤكد بلا ريب كمال اللغة العربية وطواعيتها وقدرتها على التجديد والتطوير، من خلال احتواء الأوضاع المتجددة اعتماداً على نقل الدلالة باعتبارها شكلاً من أشكال التطوير الواعي الرامي إلى سدِّ النقص في التعبير عن حاجات المتكلمين، ولا سيما المُفِنِّين منهم الذين يسعون إلى إيجاد لغة جديدة داخل اللغة المتعارفة، حيث إنهم لا يبدعون ألفاظاً جديدة، ولكنهم يخلقون تعابير ساحرة، ويستفرهون أساليب شائقة اعتماداً على توخي معاني النظم لعناصر اللغة المعروفة.

---

(١) انظر: المنظومة ضمن المرجع السابق صفحات: ٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩.

وفي ذلك يقول جبران خليل جبران: «في اللغة العربية قد خلقت لغة جديدة داخل لغة قديمة كانت قد وصلت حداً بالغاً من الكمال. لم أبتدع مفردات جديدة بالطبع، بل تعابير جديدة، واستعمالات جديدة لعناصر اللغة»[1].

القدرة على التجريد إذن تُعد نوعاً من العدول باللفظ عن مجاله المألوف، إلى مجال آخر، قد يكون قريباً منه، أو بعيداً عنه، لكنه يظل مرتبطاً به بواسطة علاقة لا يدركها إلا الرصفاء الذين يبذلون النكيثة في الوقوف على أسرار اللغة، وإبراز مواطن الجمال في تعابيرها، حيث إن الألفاظ: «إذا قُدِّر لها البقاء تنتقل من مجال إلى آخر، جيلاً بعد جيل، وذلك هو التطور الدلالي: فكثير من الدلالات التي كانت سائدة شائعة في العصر الجاهلي قد أصابها البلى، ولم نعد نراها إلا في المعاجم كرموز مُتحفية، تشبه ما نراه في المتاحف من قطع خزفية لم تعد صالحةً للاستعمال»[2] فحولنا دلالتها الحسية إلى دلالة معنوية كما يتضح من الأمثلة الآتية:

الاستنباط: حيث كانت اللفظة تدل في الأصل على عمل النبط، وهو استخراج المياه ثم صار كل استخراج للماء استنباطاً

---

(١) جبران واللغة العربية ص٢٦٤.

(٢) دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس ص١٣١ و١٣٢، ط٢، ١٩٦٣م، مكتبة الأنجلو المصرية.

ولو لم يكن المستخرج نبطياً، ثم تعدَّى المعنى إلى الدلالة على المعنويات المتعددة.

الورطة: كانت اللفظة خاصة بالطين اللازب تقع فيه الدواب، ثم انتقلت دلالتها إلى التعبير عن كل مشكلة يصعب إيجاد مخرج منها.

المجد: تدل اللفظة في أصل وضعها اللغوي على امتلاء بطن الدابة من العلف، ثم انتقلت دلالتها إلى التعبير عن القيمة المجردة الدالة على الكرم في قولهم: فلان ماجد: إذا امتلأ كرماً.

البأس: كانت اللفظة تطلق على الحرب خاصة، ثم انتقلت دلالتها إلى التعبير عن كل شِدَّة.

الصفقة: أصلها أن البيع كان يتم بضرب يد البائع على يد المشتري، ثم أطلقت اللفظة على كل عملية بيع، ولو حدث ذلك بواسطة أحدث الأجهزة الإعلامية، من دون أن يرى البائع المشتري. إلى غير ذلك من الألفاظ والعبارات التي لا يحاط بقواصيها.

٤ ـ التوليد:

التوليد تغيير يطوِّل دلالة الكلمة، نتيجة البحث والتبديل في هيئات الألفاظ التي تولد صِيَغُها المختلفة معان جديدة تسد النقص في التواصل، إنه ضرب من ضروب الإضافة التي تجود

بها بنية الألفاظ وتقليبها على صيغها الممكنة الجارية على قواعد العربية وقوالبها، بحيث تتولد ألفاظ جديدة قادرة على التعبير عن مستحدثات كل عصر.

ويُعد التوليد نوعاً من الكمال في اللغة العربية التي أظهرت منذ القرون الأولى قابلية فائقة للزيادة في أوضاعها انسجاماً مع التوسع في ميادين الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية، بحيث إن أي تغيير يحدث في حياة الناس، ينجم عنه توليد ألفاظ تعبِّر عن تلك الحاجات، شريطة اتباع سنن العرب في الوضع، والنهج على قوالبهم، حتى نضمن للعربية كيفيات استمرارها في إطار من التجديد الذي لا يقطع الصلة بلغة القرآن.

التوليد الدلالي إذن «إبداع لدلالاتٍ معجمية وتراكيب دلالية جديدة؛ أي: أنه يرتبط بظهور معنى جديد، أو قيمة دلالية جديدة بالنسبة لوحدة معجمية موجودة أصلاً في معجم اللغة، فيسمح لها ذلك بالظهور في سياقات جديدة لم تتحقق فيها من قبل... فما دام التوليد الدلالي إبداعاً لدلالات جديدة، فإنه يفترض نسقاً أو مجموعة من القواعد والقيود التي تضبط إبداع هذه الدلالات الجديدة، كما تضبط تعرفها واستعمالها»(١).

---

(١) التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم، محمد غاليم ص٥، ط١، ١٩٨٧م، دار توبقال للنشر.

ومن الألفاظ المولدة التي حازت القبول من لدن المجتمع اللغوي، وأصبحت مرتبطة بمعنى محدد، لم يكن موجوداً من قبل في أُمَّاتِ المعجمات العربية ما يأتي:

تَبَدَّى: التي كانت تعني سكن البادية، ثم تولدت عنها دلالة أخرى بمعنى: ظهر ولاح.

قال البهاء زهير:

فتاة كالهلال إذا تبدَّتْ   أرتنا البدر في ليل بهيم

وقال عمرو بن معدي كرب:

وبدَتْ لمِيسُ كأنها   بدرُ السماء إذا تَبَدَّى

تنزَّه: إذا تباعد عن المياه والأرياف، ومنه: فلان يتنزَّه عن الأقذار؛ أي: يباعدها عنه. ثم استعمل التنزُّه في الخروج إلى البساتين «وكان بعض أصحاب اللغة يذهب في قول الناس: «خرجنا نتنزَّه» ـ إذا خرجوا إلى البساتين ـ إلى الغلط، وقال: إنما التنزُّه التباعد عن المياه والريف. ومنه يقال: «فلان يتنزَّه عن الأقذار»؛ أي: يباعد نفسه عنها، و«فلان نزيه كريم» إذا كان بعيداً عن اللؤم. وليس هذا عندي خطأ؛ لأن البساتين في كل مصر وفي كل بلد إنما تكون خارج المصر؛ فإذا أراد الرجل أن يأتيها فقد أراد أن يتنزه؛ أي: يتباعد عن المنازل والبيوت، ثم كثر هذا واستعمل حتى صارت النزهة القعود في

الخضر والجنان»[1].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ عبد القادر المغربي سبق له أن استفسر ثُلَّةً من المخضربين في اللغة في مقال بعنوان «الكلمات غير القاموسية»[2] يرجو منهم إبداء الرأي في سلامة كوكبة من الكلمات المولدة مثل: (تبدَّى ـ تنزَّه ـ صدفة ـ طمن ـ فخم. . .) فجاءت إجابة هؤلاء المتنطسين من أمثال: أحمد الإسكندري ـ وجميل الزهاوي ـ ومعروف الرصافي ـ وإدوارد مرقص ـ وعارف النكدي ـ ومحمد الخضر حسين، مؤكدة أن باب التوليد والمجاز من وسائل إثراء اللغة، غير أن أي توليد لا بد له من مراعاة قواعد اللغة وذوقها السليم، وبما أن هذه الألفاظ لا تخرج عن الذوق العربي السليم، فإنها يجب إدخالها إلى حظيرة العربية، تماماً كما دخلت إليها كلمات منذ عصر الاستشهاد مثل (النِّحرير) التي قال عنها الأصمعي بأنها كلمة مولدة تعني الحاذق الماهر البصير بكل شيء، وكلمة (القحبة) التي تعني البغي، وأصلها من السعال حيث إن معنى (قحب): (سعل) لأنها تنحنح؛ أي: ترمز بالفجور. و(التفرُّج) مولدة من انفراج الهمِّ وهو انكشافه.

---

(١) أدب الكاتب، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق وضبط وشرح: محمد محيي الدين عبد الحميد ص٣٤، ط٤، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م، دار الجيل.

(٢) انظر ذلك ضمن: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد الثامن، السنة الثامنة، ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م دار صادر.

وقُل الشيء نفسه بالنسبة إلى كلمات: تجمهر ـ تفلسف ـ تمنطق ـ تجورب ـ تبيطر ـ الجبرية ـ القدرية ـ الرجعية ـ زبناء ـ مشاكل ـ معاجم ـ الشمع ـ نضوج ـ حوائج ـ أجوبة ـ تشكُّر ـ تسلُّم ـ هدف ـ المحاضرة، وعلى الجملة فقد عد الأوائل الذين ولدوا عن عفو ومطابقة ذوق كل ما لحق به تغيير، ولم يسمع قياسه مولداً، ولذلك عدَّ الأصمعي وأبو هلال العسكري وأبو القاسم الحريري وابن الجوزي وغيرهم لفظة (حوائج) مولَّدة «تقول: لي حاجات. والعامة تقول: حوائج. قال العسكري: وليس مما تعرفه العرب، ولا يوجبه القياس، وإنما تجمع العرب الحاجة فتقول: حاج وحاجات وحوج»[1].

على الرغم من أن الشواهد من أشعار الفصحاء تنطق بهذا الجمع: قال الفرزدق:

ولي ببلاد السند، عند أميرها   حوائج جَماتٌ، وعندي ثوابها

وقال الأعشى ميمون:

الناس حوْلَ قِبابه   أهلُ الحوائج والمسائل

وأنشد ابن خالويه:

خليلَيَّ إن قام الهوى فاقعدا به   لعلنا نُقَضِّي من حوائجنا رَمَى

(١) تقويم اللسان، أبو الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي، تحقيق: د. عبد العزيز مطر ص٩٨، ط٢، دار المعارف.

وغير هذه التوليدات كثير مما أوجده المترجمون الذين ارتجلوا، وعرَّبوا، واقترضوا بدافع الحاجة إلى السيطرة على المعاني المتجددة التي لم توضع لها كلمات من قبل.

وكلنا يعرف أن توليد الألفاظ والمعاني تارة يحدث بكيفية عفوية تقترب من اصطلاح (انجذاب الطبع) الذي تفوَّهَ به عمارة بن عقيل عندما جمع لفظة (ريح) هكذا (أرياح) معتذراً لأبي حاتم السجستاني بقوله: جذبني إليها طبعي، وتارة أخرى يحدث التوليد عن قصد ومراعاة حاجات التطورات المجتمعية كما يتضح الآن من الحاجة إلى اصطلاحات مثل: العولمة ـ والخصخصة ـ والانتفاضة ـ والأتْمتة = المكْننة، والأكسدة، وكثير من المصادر الصناعية مثل: الرأسمالية، والاشتراكية، والشيوعية، والماركسية، والعسكرية، والرجعية وغيرها مثل صيغ تفعلل: تبغدد، تجمهر، تملص، تفلسف، تمنطق، تمذهب، تعجرف، تبجح، تفرج، تمسلم، وهلم جرّاً مما يخطئه الحصر.

٥ ـ الاشتقاق:

يُعَدُّ الاشتقاق «من أغرب كلام العرب، وهو ثابت عن الله تعالى بنقل العدول عن رسول الله ﷺ؛ لأنه أوتي جوامع الكلم، وهي جمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة؛ فمن ذلك قوله فيما صح عنه ﷺ: يقول الله ﷻ: «**أنا الرحمٰن خلقت الرحم**

وشققت لها من اسمي»[1] الاشتقاق عملية خلق لغوي، تتم بتقليب تصاريف الكلمة بواسطة إضافة عنصر جديد إليها، أو من خلال تكرار بعض الأصوات فيها، أو بتغيير حركاتها، أو في شكل سوابق ولواحق تدمج معها. إنه نوع من صلة الرحم بين الكلمات، أساسها الاشتراك في الأصل للدلالة على المعنى الأصل بزيادة مفيدة، من خلال تركيب صيغ جديدة تنمي اللغة وتوسعها لاحتواء حاجات العصر المتجددة، «وقد قدَّر أحدهم إمكانات الاشتقاق بأكثر من عشرين ومائة وزناً؛ أي: أننا نستطيع «مبدئياً» أن نشتق من جذر «علم» أكثر من عشرين ومائة وزناً لمعان مختلفة»[2].

وقد اشتقت العرب من المصدر، ومن الفعل، ومن أسماء المعاني، وأسماء الأزمنة والأمكنة والذوات، كما اشتقُّوا من الأحرف فقالوا: (العنعنة) في الحديث؛ أي: عن فلان عن فلان، وقالوا: (سوف)؛ أي: ماطل، وقالوا: (مويْتُ) إذا كتبت (ما)، و(لويْتُ) إذا كتبت (لا) وكوفت كافاً حسنة.

فمن أسماء الذوات قالوا: ترجلت المرأة في هذا العصر، كما قالوا: استأسد، استحجر... كما اشتقوا من الجامد

---

(١) المزهر في علوم اللغة وأنواعها (١/٣٤٦).

(٢) في اللغة العربية وبعض مشكلاتها، أنيس فريحة ص٧، ط ١٩٨٠م، دار النهار للنشر، بيروت.

فقالوا: مِخدة ـ مظلة ـ مسبحة ـ الصنارة ـ السيف ـ الرمح ـ الفأس... وغيرها من أسماء الآلة التي لم تستوف شرائط اللغويين «وما كان من الآلات مما يرفع ويوضع، مما في أوله ميم فاكسر الميم أبداً، إذا كان على مفعل ومفعلة، تقول في ذلك: هذا مِشمل، ومِثقب، ومِقود، ومِنجل، ومِبرد، ومِقنعة، ومِصدغة، ومِحمرة، ومِسرجة، ومِشربة، ومِرفقة، ومِخدة، ومِحسة، ومِظلة، فهذا كله مكسور الأول أبداً، سوى: مُنخل، ومُسعط، ومُدهن، ومُدق، ومُكْحلة، فإن هذه الأحرف جاءت عن العرب بضم الميم»[1].

وهي كلها نماذج تؤكد التسامح والتجوُّز في الاشتقاق، وإنَّ هذا التساهل هو السبيل الأمثل لتنمية اللغة وتكثير مفرداتها حتى تساعد اللغة على تقديم الفكر «وإنها لجريمة لغوية أن نشدِّد في أمر السماع، إذ أن لنا من ذوقنا، ومن حسِّنا اللغوي، ومن حاجاتنا اللغوية الملحَّة، ما يبرر الاستفادة من مبادئ الاشتقاق إلى أقصى الدرجات»[2]؛ لأنه هو الذي يقوم بعملية إثراء اللغة وتوسيع أطرافها حتى تتمكن من التعبير عن

---

(١) ما تلحن فيه العامة، أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي، تحقيق وتقديم وتعليق: د. رمضان عبد التواب ص١١٤، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م، مكتبة الخانجي بالقاهرة، دار الرفاعي بالرياض.

(٢) في اللغة العربية وبعض مشكلاتها ص١٢٨.

المخترعات الجديدة، وتساير قاطرة التغيير، سواء كان اشتقاقاً صغيراً أو كبيراً أو اشتقاقاً أكبر، «وذلك بما يزود اللغة ويمدها به دائماً من أسماء وأفعال حديثة لمسميات حديثة، عن طريق التوليد والنحت ووجوه القلب والإبدال»[١].

٦ ـ القياس:

وهو مزية تقوم على مبدأ أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب. قال ابن جني: «هذا موضع شريف، وأكثر الناس يضعف عن احتماله؛ لغموضه ولطفه، والمنفعة به عامة، والتساند إليه مُقْوٍ مُجْدٍ. وقد نص أبو عثمان عليه فقال: ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب؛ ألا ترى أنك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كل فاعل ولا مفعول، وإنما سمعت البعض فقست عليه غيره»[٢].

وإذا كان هناك من الباحثين من يرى أن القياس نقيض السماع الذي يجعل الفصاحة مقيدة بمعايير محددة حصروها في اللغة الأدبية دون لغة الكلام اليومي، كما ربطوها بقبائل محددة وسط شبه الجزيرة العربية هي عُليا هوازن، وسفلى تميم،

---

(١) المدخل إلى علم النحو والصرف، د. عبد العزيز عتيق ص٥٥، ط٢، ١٩٧٤م، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

(٢) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار (١/ ٣٥٧)، دار الكتاب العربي، بيروت.

وقيس، وطيء، وهذيل، وأسد، ناهيك عن ربطها بمعيار زماني أطلق عليه عصر الاستشهاد الذي ينتهي بنهاية القرن الثاني الهجري، فإن المبدأين (السماع والقياس) يكمل بعضهما بعضاً، وفي تكاملهما توسُّع وزيادة في ألفاظ اللغة.

أما إذا تعارضا فإن ابن جني يصرح أنه «إذا تعارضا نطقت بالمسموع على ما جاء عليه، ولم تقسه في غيره؛ وذلك نحو قول الله تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ [المجادلة: ١٩] فهذا ليس بقياس؛ لكنه لا بد من قبوله؛ لأنك إنما تنطق بلغتهم، وتحتذي في جميع ذلك أمثلتهم. ثم إنك من بعد لا تقيس عليه غيره؛ ألا تراك لا تقول في استقام: استقوم، ولا في استباع: استبيع.

فأما قولهم: «استنوق الجمل»، و«استتيست الشاة»، و«استفيل الجمل» فكأنه أسهل من استحوذ؛ وذلك أن استحوذ قد تقدمه الثلاثي معتلاً... وليس كذلك «استنوق الجمل»، و«استتيست الشاة» لأن هذا ليس منه فعل معتل؛ ألا تراك لا تقول: ناق ولا تاس؛ وإنما الناقة والتيس اسمان لجوهر، لم يصرف منهما فعل معتل. فكان خروجهما على الصحة أمثل منه في باب استقام واستعاذ، وكذلك استفيل.

ومع هذا أيضاً فإن استنوق، واستتيس شاذ، ألا تراك لو تكلفت أن تأتي باستفعل من الطود، لما قلت: استطود، ولا من الحوت استحوت، ولا من الخوط استخوط؛ ولكان

القياس أن تقول: استطاد، واستحات واستخاط»[1] واستناق الذي طبقت عليه طريقة القياس الخفي، الذي هو ترك القياس والأخذ بما هو متداول بين الناس نحو (استنوق) يقول ابن جني: «واعلم أنك إذا أدَّاك القياس إلى شيء ما، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره، فدع ما كنت عليه، إلى ما هم عليه. فإن سمعت من آخر مثل ما أجزْته فأنت فيه مخير: تستعمل أيهما شئت. فإن صح عندك أن العرب لم تنطق بقياسك أنت كنت على ما أجمعوا عليه البتة، وأعددت ما كان قياسك أدَّاك إليه لشاعر مولد، أو لساجع، أو لضرورة؛ لأنه على قياس كلامهم»[2].

ويُعد هذا القياس الاستعمالي الطريقة المثلى في صياغة الاصطلاحات الحديثة، ولهذا قرر مجمع اللغة العربية بالقاهرة أنه «ليس من الخير الموافقة جملة على قياسية الصيغ، والمجمع يقر منها ما تقتضيه الحاجة للتوسع وتيسير الاشتقاق»[3]. مثل: قياس جمع الخماسي، بحيث إن كل

---

(١) المصدر نفسه (١/ ١١٧ و١١٨).

(٢) المصدر نفسه (١/ ١٢٥ و١٢٦).

(٣) المعجم المفصل في علوم اللغة (الألسنيات)، إعداد: د. محمد التونجي ود. راجي الأسمر، مراجعة: د. إميل يعقوب (٢/ ٨٤٣)، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، دار الكتب العلمية، بيروت.

خماسي، اسماً أو صفة، يجمع جمع سلامة للمذكر والمؤنث، وقياس جمع الاسم الرباعي الذي ثالثه حرف مد زائد مثل: زمان ـ وحمار، وإزار، وقضيب، ورغيف على (أفعلة) جمع قلة، و(فُعُل) جمع كثرة، وعلى (فُعْلان) أيضاً في باب «فعيل»، كما أفتى المجمَّع بقياسة (فعل) للتكثير والمبالغة، و(مَفْعلة) للمكان الذي يكثر فيه الشيء، وبذلك يجب الإذعان لاصطلاح: (المقرأة) للمكان الذي تكثر فيه القراءة مع ضرورة استبداله بعبارة قاعة المطالعة توخياً لمبدأ حسن التعبير مع الإيجاز، وقياس جمع الجمع عند الحاجة، و(استفعل) للطلب والصيرورة، وقياس التعدية بالهمزة وهلم جرّاً من المقررات القياسية التي جوَّزها المجمَّع مراعاة للمصلحة في إغناء العربية، وجعلها قادرة على الإيفاء بحاجات العصر المتجددة، من دون فتح باب القياس على مصراعيه؛ لأن المبالغة في القياس، وتفضيله على السماع الذي ظل متمسكاً بمبادئ الصحة والسلامة والنقاء، قد يفضي إلى إدخال الشطط إلى كيان اللغة العربية وتعكير صفائها، الأمر الذي يدفع إلى الفوضى والقصور عن التواصل السليم؛ لأن الفوضى، إذا بدت، لا تني تزداد حتى تفشو، وإذا فشت أضرت بالأصول السليمة، وعندما تتضرر الأصول يسهل اقتلاع الجذور الذي يفضي إلى الثبور والهلاك.

٧ ـ الإتباع:

الإتباع أنواع، وهو أن تتبع الكلمة الكلمة على وزنها أو رويها إشباعاً وتأكيداً، وهو نوع من المزاوجة التي تكون تارة للتأكيد، وتارة أخرى لمحض التزيين، بحيث إن اللفظة التابعة تكون تارة ذات معنى، وتارة أخرى لا معنى لها، وليست واضحة الاشتقاق، ولذلك قالوا بأن التابع لا يفيد وحده شيئاً، بل إن شرط كونه مفيداً أن يتقدم عليه اللفظ الأول.

«قال السبكي: والتحقيق أن التابع يفيد التقوية؛ فإن العرب لا تضعه سدى... وقال ثعلب في أماليه: قال ابن الأعرابي: سألت العرب أي شيء معنى شيطان ليطان؟ فقالوا: شيء نَتِدُ به كلامنا»[١]؛ أي: نشدُّه به ونقويه. وشرطه أن يكون على زنة المتبوع مثل قولهم: قسيم وسيم؛ أي: جميل، وسهد مهد؛ أي: حسن، وحار يار؛ أي: بالغ الحرارة، وجديد قشيب؛ أي: واضح الجدة، وشيطان ليطان؛ أي: ملازم الشر، وثقف لقف؛ أي: جيد الالتفاف، وخفيف ذفيف؛ أي: سريع، وكثير بثير؛ أي: كثير، وسليخ مليخ؛ أي: لا طعم له، وتافه نافه؛ أي: حقير، وطب لب؛ أي: حاذق، وحرب جرب؛ أي: متوجع، وغني ملي، وخبيث نبيث، وخفيف ذفيف، وفقير وقير، ومليح قزيح، وعابس كابس، وحائر بائر، وأجمعون أكتعون،

(١) المزهر (١/٤١٦).

وسائغ لائغ، وغيرها مما فيه كفاية للبيب ومقنع للأريب.

هذه جملة من لطائف اللغة العربية وأسرارها، وقبل أن أركب مسحلي وتنطلق شقاشقي في بحث عوالم ومظاهر التطور اللغوي، يرصف بي الإشارة إلى: «باب في شجاعة العربية» الذي أورده ابن جني في الخصائص مؤكداً أن من شجاعة اللغة العربية: الحذف، والزيادة، والتقديم، والتأخير، والحمل على المعنى، والتحريف[1]، وهي كلها تمثل ذروة، قلَّ أن تجد لغة قد ارتقتها لما فيها من أسرار أودعها فيها القرآن الكريم، الذي أخذ من الفصاحة بزمامها، وأحاط من البلاغة بقواصيها كما يتضح من هذه اللمحات الدالة الموجزة من سورة البقرة، آية رقم ٦٠: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾ والتقدير فضرب الحجر فانفجرت منه... وقوله تعالى من السورة ذاتها، آية ١٩٦: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ﴾؛ أي: فإن أحصرتم فتحللتم فعلى كل واحد ما استيسر من الهدي.

وقد حذفت العرب الجملة، والكلمة، والحرف، عندما يقوم دليل على المحذوف، ولذلك قالوا: «لا تنفق كلمتين إذا كفتك كلمة»[2]، كما قالوا: «إن استطعتم أن تكون كتبكم

---

(١) الخصائص (٢/ ٣٦٠).

(٢) أدب الكتاب، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، تصحيح وتعليق: محمد بهجت الأثري، مراجعة: محمود شكري الألوسي (٣/ ٢٣٠)، دار الباز للطباعة والنشر.

توقيعات فافعلوا» لشدة ولعهم بالإيجاز حتى يحفظ عنهم، «قيل لأبي عمرو بن العلاء: هل كانت العرب تطيل؟ قال: نعم ليسمع منها، قيل: فهل كانت توجز؟ قال: نعم ليحفظ عنها»[1].

وسيجد الناظر في هذه الأدلة التي أوردها ابن جني عن شجاعة اللغة العربية أنها يمٌّ لا ينكش، قد جاء به القرآن الكريم، ونطق به الفصحاء اللاسنون شعراً ونثراً. فمن أراد أن يرشف من زلال مائه، فلينظر في أُمات المصادر العربية التي فازت بقدح القصل. وسأجتزئ منها أقباساً تكون دليلاً على هذه الشجاعة التي تجعلها من أقدر اللغات على مراعاة حاجات المتكلمين ومقامات الكلام. منها قولهم في حذف الاسم في جواب السائل: من عندك؟ فتقول: فلان؛ أي: فلان عندي.

وفي حذف الفعل مثل قولهم: أكلباً وتتراجع؛ أي: أترى كلباً، وفي إضمار الحرف تمكن الإشارة إلى قول الشاعر:

ألا أيهذا الزاجري اشهد الوغى

أي: أنِ اشْهَدِ الوغى.

كما حذف الأعشى الأكبر المنعوت في قوله:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

أي: كوعل ناطح.

---

(١) المصدر نفسه ص٢٢٩.

ومن سنن العرب التقديم والتأخير، وعدم حفظ الرتبة كما في قوله أيضاً:

يوماً تراها كمثل أردية العَصْب ويوماً أديمها نَغِلا

فإنه أراد: تراها يوماً كمثل أردية العصب، وأديمها يوماً آخر نغلاً؛ أي: إن الأرض تبدو أحياناً قشيبة معشوشبة، وأحياناً يجف أديمها وييبس.

ومن سننهم أيضاً الحمل على المعنى كتذكير المؤنث، والعكس، وتصور معنى الواحد في الجماعة، والجماعة في الواحد. . .

ومن لطائفهم: المحاذاة وهي «أن تجعل كلاماً، فيؤتى به على وزنه لفظاً، وإن كانا مختلفين، فيقولون: الغدايا والعشايا»[(١)]، كما قالوا: أوبة وطوبة: والأصل: وطيبة، ولكنهم أوردوها بالواو لتوافق (أوبة) وقالوا أيضاً: رجس نجس بالكسر وهو نجس بفتح النون والجيم معاً.

هذه الخلال تظهر أن العربية تُعد بلا ريب لغة الأمس، ولغة اليوم، ولغة المستقبل، نظراً لما توافر لها من خصائص ومميزات وسَّمها بها القرآن الكريم، لا ترى فيها عوجاً، ولا طرائق قددا، ولذلك ظلت الأعين إليها روامق، والألسن بها نواطق حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) المزهر (١/ ٣٣٩).

قال الفارابي في ديوان الأدب: «هذا اللسان كلام أهل الجنة وهو المنزه من بين الألسنة عن كل نقيصة، والمعلى عن كل خسيسة، والمهذب مما يستهجن، أو يستشنع، فبنى مباني باين بها جميع اللغات من إعراب أوجده الله له، وتأليف بين حركة وسكون حلّاه به، فلم يجمع بين ساكنين أو متحركين متضادين، ولم يلاق بين حرفين لا يأتلفان ولا يعذب النطق بهما، أو يشنِّع ذلك منهما في جرس النغمة، وحسِّ السمع..»[1].

❐ ❐ ❐

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٣٤٢).

الفَصْلُ الثَّالِثُ

عوامل التطور اللغوي ومظاهره

عوامل التطور اللغوي ومظاهره

من البدهيَّات التي يقررها علم اللغة المعاصر؛ أن اللغة ملك للجماعة التي تتحدث بها، وأنها مرآة تجلو ما يعِجُّ به المجتمع من أفكار وسلوكات ومعتقدات ونوازع، نحو المحافظة المبقية على الأصول، ولا سيما في المراحل التاريخية التي تحسُّ فيها الأمة خطراً يهدد وحدتها، أو نحو امتطاء قاطرة التطور والتجديد عندما تكون في مأمن عن أي خطر كاسح، وأن أي لغة ليست من صنع فرد أو أفراد مخصوصين، وإنما هي بنت المجتمع، يرعى حركتها رعاية أم رؤوم، ويقدم لها من أسباب الحياة، ما تحتاج إليه بنيتها من مواد ضرورية للنماء، فتيْنع وتزهر وتثمر، وكلما لاحظ أن ثمارها ـ أو على الأقل بعضها ـ بقيت شِيصاً، يتدخل ليقدم لشجرتها العناصر المخصِّبة التي تجدد لها الحياة حتى تبدو شجرة مُوسقة بثمارها التي تغري الأمم الأخرى، بانتزاع فسائل منها، أو قطف بعض تُوَيْجاتها، أو تناول بعض ثمارها، لتعويض الهزال الناتج عن النقص الغذائي الذي يعتريها.

هذا هو واقع اللغات، وهو واقع يعوم في محيط من التأثير

والتأثر، ومن الانفتاح والانغلاق، ومن التجديد والمحافظة، ومن التهجين والنقاء، ومن الموت والفناء أو البقاء والاستمرار.

فما هو إذن وضع اللغة العربية؟ وما هي الشرائط والوسائل التي تضمن لها العيش الكريم ضمن هذا البحر اللجي، الذي جَيشَ آلاف الكلمات الإنجليزية يرمي بزبدها الصاخب كل لغات الدنيا محدثاً فيها ما تحدثه قوة ارتطام الأمواج العاتية بصخور الشاطئ، في معاودة حركتها حتى تصيب منها المحز إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً؟

وبما أن اللغة العربية ليست بِنَجْوة من هذا المدِّ الطوفاني لِكَلِم الإنجليزية وغيرها من اللغات، فإنها مدعوة أكثر من غيرها إلى الوعي بالأخذ بالأسباب التي تضمن لها التطور والتجديد في إطار من التمسك بالأصول، تطور يحدث في مادة اللغة التي تؤلف بنيتها وكيانها، بحيث تتولد عن الألفاظ القديمة ألفاظ جديدة، قد تبتعد قليلاً أو كثيراً عن دلالة وضعها، ولكنها لا تقطع حبل المودة بينها وبين نُطفِها ومُضَغِها التي وهبت لها الحياة؛ لأنها مولود بَارٌ لا أثر فيه لخدوج العمليات القيصرية التي تعرفها بعض اللغات، فتنشأ ألفاظها تنشئة يطبعها العقوق الناتج عن التهاون في حفظ نسلها.

ومن أين لها أن تسعى لحفظ نسلها، وهي بنت المختبرات والأنابيب، والخلايا المهجنة، لا تعرف للأبوة معنى، ولم ترضع لِبان أم حنون، كلما هدأت أنفاسها نفرت خوفاً عليها وعلى

حياتها، ما دامت المختبرات والأنابيب قادرة على الدوام بإمداد المجتمع اللغوي، بأصناف وأجناس من الكلم تحت الطلب؟ والنتيجة التي تؤول إليها مثل هذه التنشئة هي فقدان المقاومة والاستمرار، ولأنها لم تنعم بدفء الأحضان، ولم تشحن بالمشاعر والأحاسيس، ولم تدبَّ فيها نشوة الحياة، فنشأت مستعدة للتنازل عن هويتها، وعن كيانها الروحي الذي يجلِّله الصمت والسكون، فتنهار أمام أي احتكاك يحدث بينها وبين اللغات، التي تستمد عظمتها من عظمة مُفِنيها الذين يمدون شجرتها بأمواه الحياة، فتنمو رويداً رويداً حتى تصبح دوحة وارفة الأظلال والأفياء، بما أودعه فيها متكلموها من أسرار تختزن تاريخ الأمة وحضارتها وعبقريتها الخالدة.

اللغة العربية مدعوة إلى الوعي بأسرار هذه العبقرية التي أودعها فيها القرآن الكريم، أو بالأحرى إن متكلمي اللغة العربية ملزمون في ظل هذا الصراع اللغوي الجارف الذي بدأت طلائع جيوشه تستولي على الحصون والقلاع، وتتصدر الصفوف والأندية، أن ينتبهوا إلى مكانة اللغة بالنسبة إلى الأمة؛ وأنه ليس لشعب ما «حتى لو كان شعباً جاهلاً متخلفاً، ثروة أثمن من لغة أجداده. في تلك اللغة تكمن كل ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين، وفيها ينبض قلب الشعب، وتتحرك روحه، وإن من ينتزع من مثل هذا الشعب[١] لغته، أو يقصر في

(١) يقصد العالم الألماني (هردر Herder) الشعب المجري عندما قرر =

احترامها، يحرمه من ثروته الوحيدة التي لا تعرف البلى، والتي تنتقل من الآباء إلى الأبناء، وعلى مر الأجيال والعصور»[١].

من أجل ذلك لا بد من تكسير الحاجز النفسي الذي يعانيه بعض العلماء والمثقفين العرب المتمسكين باللغات الأجنبية، والذين ظل اعتقادهم أن أي تعريب للعلوم والمعارف قد يفضي بالأمة العربية إلى الانقطاع عن أسباب البحث العلمي؛ لأن العربية اليوم لم تعد لغة العلم، وإنما هي لغة دين وشعر، وغيرها من المسوغات التي تعكس ارتماء هذه الفئة من أعداء العروبة في أحضان الثقافة الغربية، ومن ثمة يتجاهلون أن تعريب العلوم والمعارف لا يعد مجرد استجابة للميول والاتجاهات القومية، ولكن هو استجابة لطرائق التعلم الحديثة، التي برهنت أن التعلم باللغة الأم، أنفع وأمتع من التعلم باللغة الأجنبية، ناهيك عما ينتج عن ذلك من تلخيص زمن التعلم، وإنعاش اللغة بالاصطلاحات الجديدة بدل بقائها لغة متون ومصنفات فاقدة لسحر الحياة، بعد أن استولت العجمة والعامية على كافة مرافق الحياة، محتكرة حيزاً مهماً في الاتصال والتواصل، ولا سيما في ميادين التجارة والصناعة

= إمبراطور النمسا جعل اللغة الألمانية اللغة الرسمية في بلاد المجر.

(١) نقلاً عن: اللغة بين القومية والعالمية، د. إبراهيم أنيس ص١٠٥، دار المعارف بمصر.

والسياحة والإدارة، ولم يبق لنا سوى نعيها في مواكب رهيبة على شاكلة قول الأستاذ عبد الكريم غلاب: «من سخرية الأقدار أن نشعر بأننا في حاجة إلى الدفاع عن اللغة العربية، لا ضد الغزو الأجنبي، كما تفعل اللغات الحية، ومنها اللغة الفرنسية التي تدافع عن نفسها ضد التسلل والتسرب الآتي عن طريق التقاء الحضارات وانتقال المسميات بأسمائها، ولكنَّنا في حاجة إلى الدفاع عن اللغة العربية ضد الذين يحتقرونها ويسيؤون إليها من بنيها.

وكم نكون سعداء يوم نصبح في صف الدفاع عن اللغة العربية ضد التسرب والتسلل فحسب، عند ذلك ستكون لغتنا قد استرجعت اعتبارها واستعادت مكانتها، وأصبحت في صف اللغات التي تعيش عصرها: عصر الصراع من أجل الكمال، لا ضد الموت»[1].

وعصر الوعي بأسباب وعوامل نموها وتطورها في اتجاه التعبير عن كنوز العلم بطواعية تجعلها سلسلة على الألسنة، وبذلك وحده نستطيع أن نضمن امتلاك المعارف التي ضيعناها في اعتقادنا أننا قادرون على السيطرة عليها بلغة أجنبية.

---

(١) مع الأدب والأدباء، عبد الكريم غلاب، ص١٤٧، ط١، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، دار الكتاب الدار البيضاء.

أولاً: عوامل التطور اللغوي

من الحقائق البَدَهِيَّة أن اللغة يأبى طبعها السكون والجمود، فهي كالماء كلما احتقن ـ بدعوى الحفاظ عليه لمدة أطول ـ يأجن بتعطيل الأيدي عن امتياح مشاربه، تماماً كما تتجمد اللغة وتتكلس إذا لم تتداولها الألسنة، وتتعهدها الأقلام بالتهذيب والتجديد والتطوير الإيجابي الذي يواكب تجدد الحياة الفكرية والحضارية لدى الأمة، غير أن هذا التطور قد يطرأ على اللغة نتيجة عوامل متعددة. تارة تتسم بطابع العفوية والمصادفة، وتارة أخرى تكون قصدية ينهض بها مهندسو السياسات اللغوية رغبة في تنميتها وإثرائها بالألفاظ الجديدة، التي تضاف إلى أسهمها التي تقوي تنافسيتها في سوق اللغات المعاصرة.

وتُعد اللغة العربية في طليعة اللغات العالمية المتكيفة، التي تظهر قدرة فائقة في العدول بالألفاظ عن دلالتها الأصلية، إلى دلالات أخرى مرتبطة بالحاجة لسد النقص في التعبير عن الحاجات المتجددة.

ولعل ألفاظ الإبل من الشواهد على قابلية اللغة العربية على قبول الدلالات الجديدة، التي لم تخطر ببال الإنسان العربي في الجاهلية، عندما أطلقها لأول مرة مثل ألفاظ: القرين والرُمَّة، والقطار، والمجد، وهند، والراقصة، والإرقال، والراوية، والمخضرم، والخجل، والجسور، والجران، والفصاحة، والنتيجة، والنُدود، وهلم جرّاً من الألفاظ البدوية

التي لا تزال تتمتع بحقوقها المدنية للعيش في عصر العولمة، بعد أن نزعت عنها أسمال البداوة، مكتسية مطارف رائقة المنظر، يظن من يتعرف إليها أنها وليدة العصر، بيد أنها تضرب في البداوة بجران، حيث إن لفظ القرين الذي يدل الآن على الصاحب والخليل، ترجع دلالته إلى «الجمل أو الناقة تكون فيهما خشونة، فيربط أحدهما إلى الآخر، حتى يلين أحدهما، ويسمى الحبل الذي يجمع بينهما القَرَن»[1].

أما لفظة الرُّمة التي تعني الآن: الكُلَّ، فإن دلالتها الأصلية هي: قطعة حبل بالٍ يكون في عنق الجمل.

أما القطار المعروف الآن ضمن وسائل النقل العصرية، فإنه لم يكن يعني لدى البدوي سوى صف جمال أحدها وراء الآخر، وغيرهما مما سيأتي توضيحه ضمن عنوان تعميم الدلالة، حيث إن الألفاظ «إذا قدر لها البقاء تنتقل من مجال إلى آخر، جيلاً بعد جيل، وذلك هو التطور الدلالي: فكثير من الدلالات التي كانت سائدة شائعة في العصر الجاهلي قد أصابها البلى ولم نعد نراها إلا في المعاجم كرموز متحفية تشبه ما نراه في المتاحف من قطع خزفية لم تعد صالحة للاستعمال»[2].

---

(١) قطوف أدبية: دراسات نقدية في التراث العربي، عبد السلام محمد هارون ص١١٥ و١١٦، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، مكتبة السُّنَّة.

(٢) دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس ص١٣١ و١٣٢، ط٢، ١٩٦٣م، مكتبة الأنجلو المصرية.

يتضح مما سبق أن كل تغيُّر يلحق بالأمة، لا بد أن يجد له صدى في لغتها، وأن الأمم الخالدة، هي التي تستطيع أن يمتد أمسها في يومها ليشكلا نظرتها الشمولية للحياة، وأن عمليات التطور في اللغة تتخذ مسارين يكمِّل أحدهما الآخر، وتعتورهما القصدية والمصادفة في الآن ذاته وهما:

أ ـ العودة إلى إحياء دلالة الألفاظ المهجورة، من خلال استغلال قابلية العربية لانتقال الدلالة، والعدول عن الأصل من أجل تجديد ثوبها، وتنمية ثروتها وقدرتها التنافسية في سوق مخترعات المصانع الغربية، ناهيك عن الحرص على الاستفادة من الثراء المعجمي الذي يميز اللغة العربية، والذي يسهِّل عملية الاختيار الأمثل للكلمة المناسبة بالنسبة إلى تسمية الشيء المراد تسميته، من دون اللجوء إلى اقتراض التسمية من الخارج، كما هو الشأن بالنسبة إلى اقتراض المغاربة لاصطلاح (دانون) هكذا!! متناسين أسماء أوضاع اللبن التي ذكرها الأصمعي ابتداء من اللِبأ، والمفصح، والصريف، والصريح، مروراً بالرائب، فالممذقر، والإدل، والضريب، والصقر، وهي كلها صفات تسعفنا في إيجاد الاصطلاح الدقيق الذي يغنينا عن الاقتراض العشوائي الذي يصيب كيان الأمة بسوسة تعيث فيه الفساد حتى تفتت أوصاله.

ب ـ الاقتراض الذي يجب أن يصاحبه فكر ثاقب يقظ، يستطيع أن يتنبه إلى مواطن القوة، وشرائط المصلحة والمنفعة، مع مراعاة طبيعة اللغة المستقبِلة للفظة المُقترَضة لأجل ضمان تكيُّفها مع نظامها.

ويتم الاقتراض الذي أصبح شراً لا بد منه، إما بواسطة التعريب، أو بالترجمة، أو من خلال اعتماد اللفظة ذاتها كما وردت في اللغة الأصل، غير أن هذا الاقتراض لا ينبغي أن يتجاوز الألفاظ المفردة إلى التراكيب والعبارات، التي تُدخل الشطط والتشويش إلى جسد اللغة المقترضة (بكسر الراء) كما تبين ذلك من خلال العبارات المقترضة (بفتح الراء) التي أوردتها في الفصل الأول.

١ ـ الاستعمال:

كثيراً ما يصبح القول الفصل في تطور كثير من الصيغ والألفاظ اللغوية للجماعة اللغوية التي تستسيغ تلك الألفاظ، قبل أن تتكفل أي هيئة بتهذيبها وإخضاعها لحسن فهم أصل وضعها، حيث إن الاستعمال يجنح نحو إحداث الأثر التواصلي المطلوب، ولا يهمه في غضون إحداث ذلك الأثر أن يلتزم بالقواعد والأصول المقررة لأصل الوضع. من ذلك لفظة: (الكأس) التي وردت في الكلام الفصيح شعره ونثره مؤنثة، وقُل الشيء نفسه بالنسبة إلى القرآن الكريم[(١)]، بل إن القرآن والشعر

(١) قال تعالى في سورة الصافات: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ آيات ٤٥ و٤٦ و٤٧. انظر مثل ذلك في: سورة الطور: آية ٢٣، وفي سورة الإنسان: آيتان ٥ ـ ١٧.

العربي لم يطلقا لفظة الكأس إلا وهي مملوءة، أما إذا كانت فارغة فهي زجاجة أو كوب أو قدح.

فهل أبقى الاستعمال الشائع على هذه الدقة في نعت الأشياء؟

الجواب تؤكده التعابير الشائعة على لسان محترفي الرياضة البدنية الذين يتبارون للفوز بالكأس العالمية، التي لم تعد على هيئة الكأس المعروفة، بله البحث عن تأنيثها، حيث شاعت عبارة (كأس العالم)، ناهيك عن مراعاة فراغها أو ملئها، الأمر الذي يثبت أن الاستعمال لم يعد يعير الدِّقة في التعبير كبير اهتمام، كما كان الأوائل حُرُصاً على مراعاتها. «ذلك أنهم لا يقولون للقدح: كأس؛ إلا إذا كان فيها شراب، ولا للبئر: ركية؛ إلا إذا كان فيها ماء، ولا للدلو: سجل؛ إلا وفيها ماء ولو قلَّ، ولا يقال لها: ذنوب؛ إلا إذا كانت ملأى، ولا يقال أيضاً للبستان: حديقة؛ إلا إذا كان عليه حائط، ولا للإناء: كوز؛ إلا إذا كانت له عروة، وإلا فهو كوب، ولا للمجلس: ناد؛ إلا وفيه أهله، ولا للسرير: أريكة؛ إلا إذا كانت عليه حجلة، ولا للمرأة: ظعينة؛ إلا ما دامت راكبة في الهودج، ولا للستر: خدر؛ إلا إذا اشتمل على امرأة»[1].

---

(١) درة الغواص في أوهام الخواص، القاسم بن علي بن محمد الحريري، تحقيق وتعليق: عبد الحفيظ فرغلي ـ علي القرني ص١٢٢ و١٢٣، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، دار الجيل، بيروت، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

ولعل في عرض نماذج من لائحة ضحايا الاستعمال، ما يفيد أن سلطة الاستعمال تفوق في أحايين كثيرة سلطة القواعد، من ذلك لفظة (المطر) التي أصبحت تطلق في حالتي الخير والشر، ولفظة (معلول) التي أصبحت تطلق على (المريض العليل)، بينما (المعلول) في الأصل: هو الذي سقي العلل، وهو الشرب الثاني، أما صيغة (مفعول) من العلة فهي (مُعَل)، وقد تكون ظاهرة أقل مجهود والكسل في النطق هو الذي أنفق صيغة (معلول) البينة الخطأ.

أما لفظة (الرضوخ) فلم تعد تستعمل إلا في الإذعان والانقياذ، بينما لم يتكلم أصل الوضع بهذا المعنى، «وإنما الرضخ كسر الشيء اليابس، يقال: رضخ الجوزة، ورضخ رأس الحية، ويقال: رضخ له من ماله إذا أعطاه عطاء يسيراً»[1].

ومن الكلمات الضحايا صيغة مفعول لفعل (أحس) التي يوردها الاستعمال هكذا (محسوسات) والصواب أن يقال: «المُحَسات؛ لأنه يقال: أحسست الشيء، وحسست به، فأما المحسوسات فمعناها في اللغة المقتولات، يقال: حسه إذا قتله»[2].

---

(١) لغة الجرائد، الشيخ إبراهيم اليازجي، جمع وتقديم: نظير عبود ص٧٠، ط١، ١٩٨٤م، دار مارون عبود.

(٢) التكملة والذيل على درة الغواص، أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقي، انظر: درة الغواص ص٨٥٣ و٨٥٤.

أما بالنسبة إلى كثير من ألفاظ الأضداد والمشترك اللفظي، فإن الاستعمال قد اتجه بها نحو الإبقاء على دلالة واحدة، نظراً لما تولِّده الدلالتان من الالتباس الذي ينفر منه المجتمع، من ذلك: لفظة (وراء) الدالة على قدام وخلف، بدليل قوله تعالى من سورة الكهف، آية ٧٩: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾؛ أي: وكان قدامهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً.

والملاحظ أن الاستعمال أمَّات معنى (قدام) وأبقى على معنى (خلف) لأمن اللبس وتيسير التواصل انطلاقاً من أن الذهن ينكر أن يدل لفظ واحد على معنى وضده، وربما لهذا السبب وجدنا من بين القدامى من ينكر وجودها، ولا سيما أن هناك ألفاظاً يزعم البعض أنها من الأضداد، وعند إنعام النظر فيها يزول معنى الضدية منها؛ كلفظة (الصريم) الذي يعني القطع؛ أي: الوقت المنقطع من وقت آخر ليلاً كان أم نهاراً، وكذلك لفظة (السدفة) التي لا تدل على الظلمة والنور في الوقت ذاته، وإنما هي الظلمة المختلطة بنور، سواء كان ذلك في المساء أو في الصباح.

ومما غيَّره الاستعمال كلمات جاءت في اللغة بلفظ التثنية، وهي في الحقيقة تدل على واحد، ومنها: المقراضان، والمقصَّان، والتوأمان: «والمقراضان: الجلمان لا يفرد لهما واحد، هذا قول أهل اللغة، وحكى سيبويه مقراض

فأفرد»[١]؛ بل إن ابن منظور نفسه أفرد لفظ المقص كما أفرده المعجم الوسيط قائلاً: «المقراض: المقص، وهو ما يقرض به الثوب أو غير؛ وهما مقراضان، جمع مقارض...»[٢].

وأحسب أن هذه الألفاظ الواردة بصيغة التثنية وهي تدل على الواحد، من بقايا اللغات السامية، حيث يوجد مثل ذلك في اللغة العبرانية التي لم تبق من صيغ المثنى إلا ما يضم زوجين، مع دلالته على المفرد مثل بعض أعضاء الجسم المزدوجة: عينان، ورجلان، وأذنان، ثم أسماء بعض الأشياء المزدوجة مثل: السراويل، وملقاطان...

ويندرج في هذا السياق لفظة (السراويل) التي حرفها الاستعمال ظاناً أنها جمع سروال، ومن ثمة أصبحنا نقرأ في كتابات المِفَنِّين المعاصرين: لبس سرواله، بينما لم يسمع بمثل هذا في آبائنا الأولين، إلى درجة أن المعجم الوسيط لم يأبه بما حدث لهذه اللفظة من تغير نحو الخطأ قائلاً: «السراويل: لباس يغطي السرة والركبتين وما بينهما (يذكر ويؤنث) جمع سراويلات»[٣].

---

(١) لسان العرب (٧/ ٢١٦).

(٢) المعجم الوسيط، إخراج: د. إبراهيم أنيس وآخرون، (٢/ ٧٢٧)، ط٢، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، دار إحياء التراث العربي.

(٣) المصدر نفسه (١/ ٤٢٨).

ومن الكلمات التي فرضها الاستعمال في هذا العصر الذي يتسم بحب الذات لفظة (الأنانية) في وصف من يفضل نفسه على غيره حيث قالوا: فلان أناني نسبة لأنا أنا «إذا قالها من يفتخر بنفسه، وهذا التعليل ظاهر البطلان؛ لأنه لو صح النسب لقلنا أنوي وكررناها، وذلك لأن ألف المقصور تقلب واواً إن كانت ثالثة؛ كقها، وقهوي، وطحا، وطحوي، على أن النسب إلى الضمائر لم يرد عن العرب، لا قياساً ولا شذوذاً»[1]، ومع ذلك ترى أن الاستعمال فرض هذا المصدر الصناعي مُستبدلاً بلفظة الأثرة التي استخدمها القرآن الكريم في قوله تعالى من سورة يوسف، آية رقم ٩١: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ لفظة الأناني رغم أنها لا أصل لها في قواعد العربية.

يتضح مما سبق أن سلطة الاستعمال، تفوق في أحايين كثيرة سلطة القواعد، ولهذا رأينا أن التطورات التي وقعت في العربية، والتي يمكن أن نعزوها للاستعمال، تطورات وقعت في اتجاه الخطأ الذي استمر لمدة طويلة من دون تصحيح حتى أصبح مستوى لغوياً مقرراً، تماماً كما هو الشأن بالنسبة إلى الأخطاء التي يمكن إرجاعها إلى ظاهرة القياس الخاطئ، حيث

---

(١) أزاهير الفصحى في دقائق اللغة، عباس أبو السعود ص٦٢، ط٢، دار المعارف.

يتوهم المجتمع اللغوي أصالة أحد الأصوات في الكلمة، فيقيسها على ما يشبهها فينتج عن ذلك القياس الخاطئ لفظة لاحنة مثل: (مدراء) عوض (مديرون) الفصيحة، التي قيست على (وزراء) جمع (وزير)، ومع العلم أن حرف (الميم) في لفظة (مدير) ليست أصلية مثلها مثل (الواو) في لفظة (وزير).

ومع هذا، فإن النظر إلى مثل هذه التطورات يجب أن نبتعد فيها عن الخوض في الخطأ؛ لأن توهم الأصالة أو انجذاب الطبع ـ كما أسماه عمارة بن عقيل أحد شعراء القرن الثالث الهجري عندما سمع منه أبو حاتم السجستاني، جمع لفظة (ريح) هكذا (أرياح) وصححها قائلاً: (أرواح).

ثم اعتذر عمارة مبرراً جمع (أرياح) بقوله: جذبني إليها طبعي ـ مبدأ عملي له أثره في تطور اللغة من حيث أصواتها وصرفها ونحوها؛ لأنها تطورات، رغم أنها من وجهة نظر معيارية تخرج عن الأصول، وتقوم على مبدأ الغفلة، فإنها قد تنطلق من مسوغات يحسن مراعاتها لأمن اللبس مثل جمع (عيد) على (أعياد)، حتى لا تختلط الصيغة بجمع (عود) على (أعواد)، الحطب، وجمع (ريح) على (أرياح)، حتى لا يختلط ويلتبس الأمر مع جمع (روح) على (أرواح)، و(أعيل عياله) بدل (أعول عياله)، لكي لا تختلط الصيغة بـ(أعول) بمعنى رفع الصوت بالبكاء.

«وفي الغريب المصنف قال الكسائي: نمى الشيء ينمي

بالياء لا غير. قال: ولم أسمعه ينمو إلا من أخوين من بني سليم، ثم سألت عنه بني سليم، فلم يعرفوه بالواو»[1].

وبهذا يتبين أن التطورات التي تحدث في اللغة، تتطلب وقتاً طويلاً، حيث لم نعرف متى تطورت (ينمي) إلى (ينمو) ومن المسؤول عنها؟، هل ترجع فعلاً إلى الأخوين من بني سليم، أم إلى المجتمع اللغوي الذي يفضل صيغة على صيغة أخرى إيثاراً للسهولة والتيسير؟، حيث تكتسب الألفاظ ظلالاً أخرى من الدلالات، أو تُقَصُّ بعض أطرافها تبعاً لميولات المتكلمين الذين ينحون باللغة إلى التعبير عن بعض الأغراض والتصورات التي تتأبى عنها العبارات الملتزمة بالصورة الذهنية المثالية، الملتزمة بأصول القواعد، مثل لفظة (استحجر) المخالفة لأصل الوضع لكنها صيغة مقبولة في الاستعمال، نظراً لنزوعها نحو اختصار الجملة الآتية: (أصبح الطين حجراً)، على الرغم من أن الاشتقاق وقع فيها من الجامد الذي لم يخرج كثيراً عن نواميس العربية.

٢ ـ ظاهرة أقل مجهود:

تُعد السهولة والتيسير مبدأ مؤثراً في كل مرافق الحياة، وليست اللغة بنجوة من هذا المبدأ الذي يميل إلى توفير الجهد العضلي في كيفية نطق كثير من كلمات اللغة، من خلال تغيير

---

(١) المزهر (١/٢٥٣).

صيغ بعضها أو حذف أجزاء منها، أو استبدال أصوات سهلة لا تتطلب مجهوداً مضاعفاً بأخرى عسيرة من دون التأثير على الدلالة التواصلية.

وقد استغلت اللغة العربية هذا المبدأ، حيث أبانت عن طواعية فائقة في تكيف معجمها المستمر لاحتياجات المتملكين في اتجاههم العام نحو تليين أصوات بعض المفردات، ولهذا فإن النظر إلى إضمار بعض الأصوات في اللغة، بوصفه ظاهرة جزئية، ينطوي على كثير من الزراية بالاتجاه العام الذي يحكم الحياة، التي تحبذ السهولة والاقتصاد في الجهد، مع إحداث الأثر المطلوب.

وبما أن اللغة جزء من هذا المجتمع، فإن استغلال هذه الإمكانية لن تكون في سوى مصلحة اللغة العربية، وفي ضمان استمرارها مواكبة للتطورات التي يشهدها المجتمع.

ويظهر أثر هذا الكسل في اللغات العالمية من خلال إسقاط، أو تليين النطق ببعض الألفاظ، إذ ليس من شك في أن قول (Bus) عوض (Omnibus) يوفر بالنسبة إلى متكلم اللغة طاقة وجهداً يمكن استغلالهما في مناسبات أخرى.

كما أن حذف ألف (ما) الاستفهامية عندما يسبقها حرف جر، وإدغام (نون) (عن) في (الميم)، وإسقاط (ذا) للإشارة،

يؤكد أن هناك «ذوقاً وعرفاً لغوياً عند العرب أصحاب السليقة، جعلهم يكرهون توالي الأمثال، وتوالي الأضداد ويألفون توالي الأشتات. فإذا توالى المثلان أو المتقاربان من هذه الأصول كره العرب تواليهما، ومن ثم عدلوا عن أصل أحدهما، ومالوا به إلى مخرج الآخر أو بعض صفاته، فآلوا بالنطق إلى الإدغام، أو الإخفاء، أو الإقلاب»[(١)].

وقد نطق القرآن الكريم بهذا في سورة النبأ حيث قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾؟ وقد استبدل العرب أحرفاً بأخرى طلباً للخفة فقالوا: ثرثارة بدل ثرارة، وحثحثت بدل حثثت، وصياغ بدل صواغ وصَوْيَاغ، واضمحلال بدل امضحلال، وطمأن بدل طأمن، كما أن قصة الأعرابية من غطفان التي زجرها ابنها، فقيل لها أن ترد عليه فقالت: أخاف أن يجوهني بأكثر من هذا وهي تريد: أن يواجهني[(٢)]، تدل دلالة على أن العرب يعتمدون التلطف والتليين في أثناء الإقدام على القلب «ومنه قولهم: (أُوار النار) وهو وهجها ولفحه، ذهب فيه الكسائي مذهباً حسناً... قال: هو (فُعال) من وأرت الإرة؛ أي:

---

(١) الأصول، دراسة إيبستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، د. تمام حسان ص١٤٤، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، دار الثقافة، الدار البيضاء.

(٢) الخصائص (٢/ ٧٦).

احتفرتها لإضرام النار فيها، وأصلها (وُآر) ثم خففت الهمزة فأبدلت في اللفظ (واواً) فصارت (وُوَار) فلما التقت في أول الكلمة الواوان وأجري غير اللازم مجرى اللازم أبدلت الأولى همزة فصارت (أُوار)»[1].

وقد جرت العادة عند العرب أنهم إذا غيروا كلمة عن صورتها الأصلية إلى أخرى، فإن الكلمة الثانية تشابه الأولى وتقتدي بأقيستهم وأمثلتهم، ومن ذلك ما نلاحظ في زحاف (الطي) الذي يدخل تفعيلة (مستفعلن) ويحذف منها الرابع الساكن فتصبح (مستعلن) التي تحول إلى (مفتعلن)؛ لأن (مستعلن) غير مألوفة وغير مستعملة لديهم.

هذه الأمثلة وغيرها تؤكد حرص العرب على ظاهرة أقل مجهود باعتماد الصنعة والتلطف، مع الرغبة في الإبقاء على الذاكرة الإنشادية الذوقية التي تنشد الإيجاز، وتحبذ التوازنات الصوتية في نظم الكلام، حتى صح لديهم الخروج عن أصول بعض الكلمات حرصاً منهم على التمسك بالإيقاع السماعي فقالوا: آتيه بالغدايا والعشايا، وخير المال سكة مأبورة، أو مهرة مأمورة، بدل (مُؤمرة) و(الغدوات) اللتين لا تحققان التوازن الصوتي. وقد تلتجئ العرب إلى العدول عن الحرف الخفيف إلى ما هو أثقل منه ليختلف اللفظان فيخفان على اللسان ومثال

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٨٩).

ذلك (الحيوان) «ألا ترى أنه... من مضاعف الياء، وأن أصله (حييان)، فلما ثَقُل عَدلوا عن الياء إلى الواو. وهذا مع إحاطة العلم بأن الواو أثقل من الياء، لكنه لما اختلف الحرفان ساغ ذلك»[1].

وقُل الشيء نفسه بالنسبة إلى إبدالهم نون (عنبر) ميماً، على الرغم من أن الميم أثقل من النون فقالوا: (عمبر) رغبة منهم في إزالة الثقل عن الكلمة والميل بها نحو الخفة، إيثاراً منهم لمبدأ الاستحسان الذي يعد ضرباً من الاتساع والتصرف الحسن مثل قولهم: (الفتوى والتقوى، والصبية والقنية، ورجل غديان وعشيان، وهي كلها قلبت فيها الياء واواً أو العكس طلباً للخفة، أو نتيجة لإيثار الياء على الواو مثل قولهم: طويت طيّاً، ولويت ليّاً).

وقد تثقل عليهم صيغة (فعَّل) بفتح العين المشددة بواوين قبلهما ضمة، فيعدلون عن الواوين إلى الياء لخفتها فقالوا: صَيَّم، ونَيَّم، بدل صُوَّم ونُوَّم، كما قالوا: صائغ وصواغ وصياغ، وهي كلها أمثلة تشهد أن المعاقبة بين الواو والياء المشددتين للتخفيف أمر سائغ في كلام العرب مثل: دعاية = دعاوة، وسواح = سياح، أخذاً منهم بالاستعمال، بدل القياس، اعتباراً منهم أن سلامة الكلمة وفصاحتها لا ينظر فيها إلى

---

(١) المصدر نفسه (٣/١٨).

موافقتها للقياس فقط، بل تستمد فصاحتها من جريانها على ألسنة الفصحاء رغم شذوذها.

يستنتج من حاصل هذه التغيرات أن الحسَّ الاستحساني الذي ينشد الخفَّة أملاً في رفع الكلفة والمشقة عن المتكلم في أثناء النطق، وهو أمر لا مشاحة في الانصياع إليه، رغبة منهم في أن يقلَّ في كلامهم ما ينسب إلى الثقل، ويكثر فيه ما هو إلى الخفة أميل.

تأسيساً على هذه التيسيرات التي وجد لها القدامى ما يسوغها، فإن مثل هذه العبارة التي ترد في كتابات المعاصرين (نظر إلى قاع البئر) مسقطين حرف (الراء) من آخر كلمة (قاع) يمكن تعليلها بظاهرة الرغبة في السهولة والتيسير، على الرغم مما يمكن أن توقعنا فيه هذه اللفظة من التباس، حيث إن القاع هي الأرض السهلة المطمئنة، والقعر هو أسفل البئر ونهايتها.

ومما تنطبق عليه ظاهرة أقلَّ مجهود في اللغة العربية أشدَّ انطباق: النحت، فهو في أجلى تعريف له بناء كلمة من كلمتين أو أكثر، بشرط تباعدهما في الهيئة اللفظية والمضمون الدلالي، حيث تنوب الكلمة المنحوتة عن المتروك وتدل عليه، رغم هيئتها المختصرة.

النحت إذن عامل من عوامل إغناء اللغة العربية بكلمات جديدة تتولد من كلمتين أو كلمات عديدة، وقد استغل العرب

الأوائل هذه القابلية لدى العربية فنحتوا كلمات، لكنها عند العدِّ لا تتعدى بضع العشرات مثل: عبشمي، وضبطر، وبلحارث، ومرقسي، وصلدم، وعبدري، وغيرها من المنحوتات المختصرات لجمل مفيدة مثل: البسملة، والحمدلة، والحولقة، والدمعزة، والطلبقة، والهيللة... وإذا كان النحت ظاهرة لغوية، فإن «الكلمات المنحوتة؛ أي: المركبة من كلمتين أو أكثر، تعد بالآلاف في الفارسية والأرمنية، وفي عدة لغات أوروبية كالإنجليزية والألمانية، أما في لغتنا فإنها تحصى بالعشرات، مما يصعب صوغ كلمات جديدة، ولا سيما المختصة بالعلوم والفنون»[(١)].

وقد استشعر كل من مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ومكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي بالرباط، حقيقة صعوبة اللجوء إلى النحت في العربية، ولذلك دعيا إلى الاحتراز من النحت، وعدم اللجوء إليه إلا في حال الضرورة القصوى: لأن طبيعة اللغة العربية، تأبى النحت ولا تلين له في الغالب الأعم، وهذا هو السر في قلة المنحوتات الخاصة بالاصطلاحات العلمية والفنية، وحتى إذا وجدت فإنها تبدو بمثابة جسم غريب عن العربية، وتحتاج إلى وقت طويل حتى يستسيغها المجتمع اللغوي

---

(١) غرائب اللغة العربية، الأب رفائيل نخلة اليسوعي ص٥٠، ط٤، دار المشرق، بيروت.

مثل المنحوتات الآتية: (مِشْلَوْز) من: مشمس ولوز ـ و(حِزْضَر) من: الحزام الأخضر، و(طِبْسي) من: طب نفسي، و(مُحَبْرم) من: ماء حب الرمان، و(قروسطي) من: القرون الوسطى.

مما سبق يتبين أن النحت من حيث المبدأ يُعد وسيلة من وسائل إغناء وتطوير العربية بالكلمات الجديدة المعتمدة على اليسر والاختصار، لكن الحقيقة أن اللغة العربية لا تنقاد إلى النحت؛ لأنها ليست لغة إلصاقية، ولهذا يجب ألا نُخضع لغتنا العربية لمنطق اللغات الأجنبية.

ويوضح الجدول الآتي النسبة الضئيلة التي يحوزها النحت بالنسبة إلى معجمات العلوم، التي وضعها مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي بالرباط[(١)]:

المعجم	العدد الإجمالي للمفردات	عدد الألفاظ الدخيلة	عدد الكلمات المنحوتة
معجم الفيزياء	٥١٢٦ كلمة	٥٠ كلمة	٠٨ كلمات
معجم النفط	٣٨٠٢ كلمة	٧٨ لفظة	٠٥ كلمات
معجم الطب	٢٣٠٥ اصطلاح	لا شيء	لا شيء

كما يُعد استبدال الكلمات السهلة في النطق بالكلمات الخشنة النافرة مثل: الجُرَافش، والجُرْشع، والجِرْواض،

(١) التعريب جهود وآفاق د. قاسم سارة ص٢٤٢، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، دار الهجرة للطباعة والنشر، دمشق، بيروت.

والشرواض، والشرابط، وهي كلمات تعني: القوي، أو الضخم، سواء كان من الحيوان، أو كان من الرجال، وسيلة من وسائل نُشدان اليسر والسهولة، رغبة من المجتمع اللغوي في تحسين وقع الكلام وتلطيفه، نظراً لما للسهولة من تأثير عاطفي على رواج السوق اللغوية.

٣ ـ ظاهرة سوء الفهم وأخطاء السمع:

لسوء فهم كل من المتكلم والمجتمع أثر في الانحرافات التي تعرفها اللغة، وهي انحرافات تبتدئ ـ في الغالب الأعم ـ فردية، ناتجة عن السهو والغفلة، ثم تغدو أثناء رحلتها ودورانها على الألسنة، بعد أن حشدت لها الأنصار، اجتماعية معتمدة في انتشارها ورواجها على قوة التقليد المجتمعية قرناً بعد قرن[١]، حيث تتعرض الجماعات اللغوية في أثناء اكتسابها للغتها «لاحتمالات سوء الفهم وتغيير القواعد والنظم الثابتة أو الانحراف عنها»[٢].

ولقد تركت الانحرافات اللغوية الناتجة عن سوء الفهم وأخطاء السمع آثاراً واضحة على الثروة اللغوية، تارة من خلال

---

(١) القرن هنا بمعنى (الجيل) قال تعالى من سورة المؤمنون، آية ٤٢: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾.

(٢) دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة وتقديم وتعليق: د .كمال بشر ص١٧١، ١٩٩٢م، مكتبة الشباب.

الزيادة في ألفاظها كما توضح الأمثلة الآتية: العنوان والعنيان والعلوان، ونغق الغراب ونعق، ومدحته ومدهته، والأيم والأين للحية، والرِجْبَة والرُجْمة؛ أي: ما تعمد به النخلة، ويلل وألل وهما لفظان توصف بهما الأسنان إذا كان فيهما إقبال على باطن الفم، والحثالة والحفالة للرديء من كل شيء، ونشزت المرأة ونشصت؛ إذا أبغضت زوجها، والغيم والغين؛ أي: السحاب، والحزن والحزم لما غلظ من الأرض، والرفل والرفن؛ أي: طول الذنب لدى الخيل، وهلم جرّاً مما يطول ذكره ويرهق، وهي زيادة مردُّها إلى تعويض حرف من حرف على إثر الخطأ في السمع والذي انتهى إلى ظهور لغات مختلفة لمعانٍ متفقة.

وتارة أخرى تترك ظاهرة سوء الفهم وأخطاء السمع أثراً على اللغة من حيث عقد صلات زائفة بين مجموعة من الألفاظ التي انحرف بها الاستعمال، فخلط معناها بمعنى ألفاظ أخرى تتفق معها في الأصول، دون حركات المباني والصيغ مثل العبارات الآتية التي أصبحت متداولة لدى الخاصة والعامة على شاشات التلفاز العربية من المحيط إلى الخليج: تحسين الخدمات الاجتماعية بفتح الخاء والدال، وهم يقصدون جمع (خدمة) بكسر الخاء وسكون الدال؛ أي: الخدمات أما الخدمة بفتح الخاء والدال جمع: خدم بفتح الخاء والدال وخدام بكسر الخاء وفتح الدال وقد تجمع على خدمات بفتح الخاء والدال فهي: «السير الغليظ المحكم مثل الحلقة، يُشَد في رسغ البعير

ثم يُشَد إليها سرائح نعلها... والخَدَمَة: الخلخال... وقد تسمى الساق خَدَمَةً حملاً على الخلخال لكونها موضعه»[1].

وفي الحديث: «**فض الله خدمتهم**»؛ أي: فرق جماعتهم.

أما عبارة (المنزل مؤلف من ثلاثة طوابق) يريدون بذلك الطبقات تشبيهاً لها بطبقات الناس، أما الطابق بفتح الباء وكسرها فهو الآجر الكبير أو ظرف يطبخ فيه، وهذان المعنيان لا صلة لهما بالمعنى المراد من ثلاثة طوابق.

وقُل الشيء نفسه بالنسبة إلى عبارة: (اشتريت الخضر من السوق) يريدون بها (الخضار) جمع خضراوات، وهي عبارة ناتجة عن سوء فهم المتكلمين للمعنى المراد الذي هو (الخضار) وليس لون الخضرة.

وتُعد مسألة التذكير والتأنيث من أكثر الأبواب التي يشيع فيها سوء الفهم، فتراهم يذكرون البئر وهي مؤنثة، ويذكرون الكأس وهي مؤنثة، ويؤنثون الزوج هكذا زوجة، ولا يكادون يذكرون اللفظة من دون الهاء، مع أن البوازل لا يقولون زوجته بل زوجه، بدليل ما نطق به القرآن الكريم في سورة البقرة، آية رقم ٣٥: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، وفي سورة النساء، آية رقم ٢٠: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ

---

(١) لسان العرب (١٢/ ١٦٧).

إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ...﴾، ولذلك كان الأصمعي ينكر (زوجة) على الرغم من أنه سمعها من العرب الفصحاء في ألفاظ الحديث وفي الشعر القديم، قال الفرزدق:

وإن الذي يسعى ليُفْسد زوجتي   كساع إلى أُسْد الشرى يستبيلُها

وقال ذو الرمة:

أذو زوجة بالمِصْر أم ذو خصومة   أراك لها بالبصرة اليوم ثاويا

كما يكثر سوء الفهم وأخطاء السمع في النسب، فتراهم ينسبون إلى الجمع فيقولون: القانون الدولي بضم الدال المشددة وفتح الواو، بدل الدولي بفتح الدال المشددة وسكون الواو. ويقولون: (قداس كنائسي) بدل: كنسي، وعقائدي بدل عقدي، ودراسات وثائقية «أما كلمة ضريبة فلا ترد في الاستعمال الحديث إلا بالياء فيقال: العدالة الضريبية، والبطاقة الضريبية، والقوانين الضريبية... ولم أسمعها أو أجدها من دون الياء في أي عبارة حديثة»[(١)].

ومن أخطاء السمع التي أصبحت مستوى لغوياً مقبولاً لدى العامة قولهم: الغث والثمين بدل السمين، مع الفارق بين المعنيين اللذين يراد بهما التقابل بين الشيئين؛ أي: بين الغث، وبين السمين. أما الثمين فهو الغالي الثمن.

---

(١) العربية الصحيحة، دليل الباحث إلى الصواب اللغوي، د. أحمد مختار عمر ص١٠٥ عالم الكتب.

كما نلاحظ في لغة المعاصرين تسويتهم بين لفظتي (كابد) و(تكبد) فيقولون: تكبدت المشاق بدل كابدت المشاق. . «أما تكبد وكبد فهما عربيتان صحيحتان، ولكن في غير هذا المعنى. يقال: تكبدت الشمس السماء إذا صارت في كبيدائها، وهو وسطهما، وتكبد فلان الفلاة إذا توسطها، وكذلك كبدت الشمس تكبيداً إذا صارت في وسط السماء، ويقال: تكبد اللبن إذا خثر»[1].

والملاحظ أن هذه الأمثلة التي نشأت في الغالب الأعم عن سوء الفهم والخطأ في السمع، أصبحت مستوى لغوياً يقبله كثير من المعاصرين، ويعدونه مصدراً من مصادر إثراء الثروة اللغوية فهذا مجمع اللغة العربية بمصر يجيز النسب إلى الجمع، كما يجيز صياغة أسماء الآلة من الفعل اللازم، كما أجاز استعمال كلمة (الطابق) بمعنى (الطبقة) في الجلسة التاسعة من الدورة الثانية والخمسين للمؤتمر[2]، كما جوَّز النسب إلى المثنى في الاصطلاحات العلمية، وجوَّز النسب إلى بنية هكذا (بنيوي) بدل (بِنْيي)[3]، كما أجاز نفي الماضي باستعمال لفظ

(١) أزاهير الفصحى في دقائق اللغة ص٥٩.

(٢) المعجم المفصل في علوم اللغة (الألسنيات)، الجزء الثاني، ملحق ثان ص٨٢٨.

(٣) نفسه الجزء الثاني، ملحق ثان ص٨٦٩.

(أبداً) بدل (قط) في قولهم: «لم أفعل هذا أبداً» والفصيح أن يقال: «لم أفعل هذا قط» ولا أفعله أو سأفعله أبداً، «واللجنة ترى جواز الاستعمال العصري، فقد أثبتت اللغة من معاني «الأبد» الدهر مطلقاً، أو الدهر القديم أو الطويل...»[1].

ومن عبارات سوء الفهم التي تجري على ألسنة وأقلام المعاصرين قولهم: المرأة تكابد شهور الحمل الأولى، حيث يوردون جمع (شهر) هكذا (شهور) للكثرة، مع أن أشهر الحمل لدى المرأة لا تتعدى تسعة أشهر، ولذلك فإن جمع القلَّة هو الذي يناسب العبارة السابقة: تكابد أشهر الحمل الأولى «ليتناسب نظم الكلام، ويتطابق العدد والمعدود كما جاء في القرآن الكريم: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ [التوبة: ٢]، وكما نطق به التنزيل: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾ [لقمان: ٢٧]، والعلة في هذا الاختيار أن العدد من الثلاثة إلى العشرة وضع للقلة فكان إضافته إلى مثال الجمع القليل المشاكل له أليق به وأشبه بالملاءمة له»[2].

غير أن أصحاب التيسيرات اللغوية يرون أنه لم يثبت في سليقة العرب القدامى أن صيغ جمع التكسير موزعة بين صيغ جمع القلة، وصيغ جمع الكثرة، بدليل أن هناك صيغاً تستخدم

---

(١) نفسه الجزء الثاني، ملحق ثان ص٧٤٣.

(٢) درة الغواص ص٥٨٥.

مع الكثير حيناً، وأحياناً أخرى مع القلة، حيث لا نجد لها صيغة دالة على القلة من مادتها مثل: كتب وطُرق وقلوب... كما لا نجد لبعض صيغ القلة صيغة دالة على الكثرة من مادتها مثل: أعمال وأشياء وأتربة... من أجل ذلك انتهى الميسِّرون إلى أن «صيغ جمع التكسير جميعاً مشتركة في الدلالة على القلة والكثير، بحيث تستعملان فيهما استعمالاً واحداً، والسياق والقرينة هما اللذان يعينان الدلالة، مثلها في ذلك مثل صيغ الجمع السالم، واسم الجمع، واسم الجنس الجمعي، فجميعها وضعتها اللغة لمطلق الجمع، وتفهم القلة والكثرة حسب ما يرجحه، أو بعبارة أدق، يؤديه سياق الكلام وما به من قرائن»[1].

ومن استعمالات سوء الفهم ما نجده لدى كُتَّاب الأعمال السردية قصصاً وروايات في مثل قولهم: يخاف المسكين طوارق الليل والنهار، متناسين أن الطروق هو الإتيان بالليل لا غير.

ويقولون لمن يريد تهدئة الغضبان: اتركه حتى يسكن غضبه، وهي عبارة ترجع في ما يبدو إلى خطأ سمعي، حيث أبدلت التاء من (سكت) نوناً، قال تعالى من سورة الأعراف، آية رقم ١٥٤: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، ومن العبارات الشائعة التي

(١) تيسيرات لغوية، د. شوقي ضيف ص٦٤، دار المعارف، القاهرة.

ترجع إلى سوء فهم المعنى المراد قولهم: «رُبَّ مال كثير أنفقته وفي هذا تناقض؛ لأن «رُبَّ» للقليل فلا يُخبر بها عن الكثير»[1]، ومثل ذلك قولهم: لم يكن ذلك الأمر في حسابي بدل قولهم: لم يكن ذلك في حسباني، إذ ليس للحساب هنا مسوغ.

أما العبارة: تزين العريس ليلة الدخلة بفتح الدال فهي عبارة يتوزعها سوء الفهم وخطأ السمع، حيث إن هناك فرقاً بين لفظتي (الدخلة) بفتح الدال، وهي معسلة النحل، وبين (الدخلة) بضم الدال؛ أي: ليلة الزفاف.

ومن أخطاء السمع التي أصبحت شائعة قولهم: الأسنان مفرمة بدل مثرمة الفصيحة. وهلم جرّاً من التعابير المعاصرة التي أصبحت تمثل مستوى لغوياً لا ينبغي أن نجعله دَبْرَ الآذان، ولا سيما تلك الاستعمالات التي لا تفصلها عن الفصحى إلا حواجز وهمية؛ لأنها إن لم تكن بنت اللغة العربية الفصحى، فإنها تمتُّ إليها بعرق أصيل مثل قولهم: نفث الحماس في الشعب، التي اكتسبت درجة رفيعة من القبول بالقياس إلى عبارة: نفث الحماسة في الشعب التي تعد أكثر صواباً وفصاحة.

هكذا يبدو أن هذه التجوُّزات غير متمحِّلة، وأنها تنشد الشيوع والانتشار للغة العربية، وأنها في الغالب تنساق إلى

---

(١) تقويم اللسان، أبو الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي، تحقيق وتقديم: د. عبد العزيز مطر ص١١٣، ط٢، دار المعارف.

قوانين العربية وصحة حكمتها ومقاصدها التي تذعن إلى قوانين التطوير الإيجابي الذي يحافظ على ثوب العربية، ويضمن له التجدد على الدوام.

٤ ـ الارتجال ممن قويت فصاحته:

يُعَدُّ الارتجال من أكثر الوسائل إحياء للغة، وهو مبدأ أخذ به القدامى حيث إن «الأعرابي إذا قويت فصاحته، وسمت طبيعته تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله به، فقد حُكي عن رؤبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها ولا سُبقا إليها»[(١)]. ومن ذلك ما جاء به ابن أحمر الباهلي مثل: (الجَبْرُ) للملك لأنه يجبر بجوده، و(الديْدَبُون) وهو اللهو في قوله:

خَلُّوا طريق الديدبون وقد ... فات الصِبا وتنوزع الفخر

ولفظة (المأنوسة) للنار عندما يتفاءل بها في قوله:

تطايح الطلُّ عن أردافها صعداً ... كما تطاير عن مَأْنُوسةَ الشرر

وقد أورد ابن جني في الخصائص باباً في هذه اللغة: أفي وقت واحد وضعت أم تلاحق تابع منها بفارط؟ مؤكداً أنه «لا بد أن يكون وقع في أول الأمر بعضها، ثم احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه، لحضور الداعي إليه، فزيد فيها شيئاً فشيئاً»[(٢)].

---

(١) الخصائص (٢/ ٢٥).

(٢) نفسه (٢/ ٢٨).

ولقد حملت لنا الأخبار والروايات أن بعض الأعراب وبعض الشعراء كانوا مولعين بالوضع والاصطناع، ومن ذلك ما تنبه إليه اللغويون في شعر الصعاليك الذين يرتجلون ألفاظاً غريبة لم تسمع بها العرب قط فالأصمعي لم يعرف «سحاليل» في قول الأعلم يصف جراء الضباع:

سودٍ سحاليل كأنَّ جلودهُن ثياب راهبْ

والمتعقب لأشعارهم يجد طائفة من الألفاظ الغريبة التي لا توجد في مكان آخر[1]، غير أن هذا الغريب استطاع أن يكتسح سوق اللغة، ويضمن لنفسه الرواج.

وقد أورد ابن دريد في المجتبى ألفاظاً وعبارات لم تسمع إلا من النبي محمد ﷺ، من ذلك عبارة: (مات حتف أنفه) إذا مات الإنسان في فراشه من غير قتل. ثم عبارة (لا ينتطح فيها عنزان) و(الآن حمي الوطيس) و(الزمارة)؛ أي: الزانية.

كما أورد السيوطي نقلاً عن بعض الثقات أن «أول من قال: «أما بعد» كعب بن لؤيّ، وهو أول من سمَّى يوم الجمعة الجمعة، وكان يقال له العروبة»[2]، وغيرها من الألفاظ التي سمعت من الشعراء الذين قويت فصاحتهم مثل: الكَتْر،

---

(١) فقه اللغة المقارن، د. إبراهيم السامرائي ص١٨٠، ط٢، حزيران/ يونيه ١٩٧٨م، دار العلم للملايين، بيروت.

(٢) المزهر (١/ ١٤٩).

والتوأبانيان، والكِراض، التي تعني تباعاً: السنام، وقادمتا الضرع، وحَلق الرحم.

إن التأمل الألمعي في هذه الارتجالات وغيرها، يؤكد أن العرب القدامى ـ ولا سيما الذين يُشهد لهم بالفصاحة ـ كانوا يتصرفون في اللغة وفق المقامات المختلفة التي تعرض لهم رغبة منهم في إصابة الوصف، والتعبير باللفظ الدقيق الذي لا يتجاوز المعنى المراد، ولا يقتصر عنه.

وقد أخبر أبو حاتم في الجمهرة قال: «سألت أم الهيثم عن الحب الذي يسمى أسفيوش ما اسمه بالعربية؟ فقالت: أرني منه حبات، فأريتها، فأفكرت ساعة، ثم قالت: هذه البُحْدُق، ولم أسمع ذلك من غيرها»[1]. مؤكدة من خلال هذا الارتجال إصرارها على استغلال وسائل وأسباب رقي اللغة ونموِّها، دون الإبقاء على ألفاظ اللغات الأخرى، وارتداء أثوابها التي يمجُّها الذوق العربي السليم، مرتجلة لفظة (البحدق) المتمتعة بكامل الحقوق التي تتمتع بها ألفاظ العربية، من حيث جرسها، وصيغتها، وقابليتها للاشتقاق منها.

هذا هو مبدأ المتقدمين، فكما حكي عن المبرد أن جماعة وضعوا له كلمة (القِبْعَض) وسألوه عن معناها فقال: القطن ثم زاد عليه قول الشاعر:

---

(١) نفسه (١/ ٢٥٢).

كأن سنامها حشى القِبْعَضا

حيث أوجد المعنى واخترع له الشاهد.

هل نرضى نحن اليوم أن نفوت على اللغة العربية الأخذ بأسباب نموِّها ومسايرتها للأطوار الجديدة التي اقتحمتها الأمة العربية، أو على الأقل أقحمت فيها، متمسكين بضرورة إبادة فوضى التجوُّز التي تفضي بالعربية إلى السير في غير نظام؟

الحق الذي لا يُمترى فيه أن اللغة لم تجر على الألسنة دفعة واحدة، بل وضعت تباعاً لحاجات متكلميها. وإذا كانت حاجات العربي المعاصر لا تنقطع، فإن أي حجر يُفرض على العربية يفضي بلا شك إلى إقصائها من مجاراة أحوال الحضارة المعاصرة، لكن هذه الحرية في التجوُّز، لا ينبغي أن تضع على أعيننا عصابة تجعلنا نقبل ما لا يوافق أصول العربية.

إن التوسعة في العربية يجب أن تصاحبها نظرات ثاقبة تحفظ للعربية ولمتكلميها الهوية والكيان؛ لأن أي تجديد لا بد له من تهذيب يراعي موافقة الجديد لأصول اللغة وقواعدها التي توطد أركانها.

ولقد أحسن مصطفى الغلاييني في التعبير عن الحاجة إلى التوسع في اللغة قائلاً: «فكل ما يوافق أصول اللغة مجازاً، أو تصريفاً، أو اشتقاقاً، أو قياساً، وكان مقبولاً عند أصحاب الذوق السليم، وكنا في حاجة إليه، جاز لنا استعماله، وإن

لم يستعمله الجدود. وما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم»[1].

وعلى الجملة؛ فإن الألفاظ الشائعة على ألسنة الكُتَّاب البلغاء والشعراء المفلقين، والخطباء المصاقعة، وليس لها وجود في المعجمات العربية، وكأن لها أصل في القياس أو السماع مثل: الإمضاء بمعنى التوقيع، والإجازة بمعنى العطلة، والتحوير بمعنى التغيير، والتسييس بمعنى إدخال السياسة في أمر ما، والصدفة بمعنى المصادفة، والتشطيب بمعنى الإلغاء، والعشوائية بمعنى السير على غير هدى مستنير، وتكبَّد بمعنى عانى المشاق، والفنان بمعنى المُفِن، والعملية الجراحية بمعنى أجريت له جراحة، وأجواء البلاد جمعاً للفظة جو، والفرحان بمعنى المسرور، والمتفرجون بمعنى المشاهدون، والمجلة بمعنى الصحف في شكل كتاب، والجوسق بمعنى الكشك، والمخضبة بمعنى خرقة الحيض، أو اصطلاح: المآلي؛ المرادف لخرق الحيض، كما يؤكد ذلك حديث عمرو بن العاص قائلاً: ما تأبطتني الإماء ولا حملتني البغايا في غُبرات المآلي. والقزع بمعنى نوع من الحلاقة التي أصبح شباب هذا العصر شغوفاً بها

---

(١) نظرات في اللغة والأدب، مصطفى الغلاييني. نقلاً عن مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق عبد القادر المغربي، المجلد (٨/ ٦٣)، السنة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م، دار صادر، بيروت.

تقليداً منه لمشاهير لاعبي كرة القدم، والزفانين الغربيين، وهي حلق الرأس وترك بعض الشعر متفرقاً في مواضع منه ـ وقد نهى الرسول الكريم ﷺ عن القزع ـ، والدرابزين بمعنى الحاجز على جانبي المرقاة يحمي الناس من السقوط، والقحبة للبغي لأنها تسعل وتنحنح، والمصولة للآلة التي تقوم بعملية عزل الحبوب عن التبن والعيدان، وغيرها من الألفاظ والاصطلاحات العربية السائغة التي يقبلها الذوق العام، ويفرضها التطور العام في دلالات الكلمات العربية من قرن إلى قرن؛ لأنها كلها تطورات تلبي للمجتمع اللغوي مطالب التعبير عن الحاجات المتجددة، ولا سيما أنها ظلت متمسكة بالقوانين العامة.

ولذلك ليس هناك ارتياب في صحة استعمالها، ولا سيما الكلمات والاصطلاحات التي تدخل في إطار التطوير القصدي الذي يقوم به المِفَنُّون في اللغة مثل الشعراء والمَجْمعيين لسد الحاجة والنقص في التعبير عن مستجدات الحياة العلمية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والسياحية، كما هو الشأن بالنسبة إلى المعجمات التي يصدرها مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي بالرباط، حيث يعتمد المكتب خطة واضحة في وضع الاصطلاحات العلمية بالنسبة إلى ميادين المعرفة التي يشملها المعجم مثل اصطلاحات البورصة، والطب، والفيزياء، والنفط، وعلم النفس اللغوي، وعلم السكان، والتعمير،

والدراسات التقنية[1]، وهلم جرّاً من الألفاظ والتعابير التي توسِّع جسد اللغة، وتحرر منطقها الداخلي، وتجعل حركيتها الذاتية تنبعث مجدداً من خلال استغلال الإمكانات الاشتقاقية الهائلة للعربية.

وقد عبَّر جبران خليل جبران عن ذلك في نص المقابلة التي أجرتها معه مجلة الهلال المصرية حول مستقبل اللغة العربية حيث قال: «إن خير الوسائل، بل الوسيلة الوحيدة لإحياء اللغة هي قلب الشاعر، وعلى شفتيه، وبين أصابعه، فالشاعر هو الوسيط بين قوة الابتكار والبشر، وهو السلك الذي ينقل ما يُحدثه عالم النفس إلى عالم البحث، وما يقرره عالم الفكر إلى عالم الحفظ والتدوين.

الشاعر أبو اللغة وأمها، تسير حيثما يسير، وتربض أينما يربض، وإذا ما قضى، جلست على قبره باكية منتحبة، حتى يمر بها شاعر آخر، ويأخد بيدها...

أعني بالشاعر: ذلك الزارع الذي يفلح حقله بمحراث، يختلف ولو قليلاً عن المحراث الذي ورثه عن أبيه، فيجيء بعده من يدعو المحراث الجديد باسم جديد، وذلك البستاني الذي يستنبت بين الزهرة الصفراء والزهرة الحمراء زهرة ثالثة برتقالية

---

(١) انظر: مجلة (اللسان العربي) العددان ٤٧ و٤٨، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مكتب تنسيق التعريب، الرباط.

اللون، فيأتي بعده من يدعو الزهرة الجديدة باسم جديد! وذلك الحائك الذي ينسج على نوله نسيجاً ذا رسوم وخطوط تختلف عن الأقمشة التي يصنعها جيرانه الحائكون، فيقوم من يدعو نسيجه هذا باسم جديد.

أعني بالشاعر: الملّاح الذي يرفع لسفينة ذات شراعين شراعاً ثالثاً، والبناء الذي يبني بيتاً ذا بابين ونافذتين بين بيوت كلها ذات باب واحد ونافذة واحدة، والصباغ الذي يمزج الألوان التي لم يمزجها أحد قبله، فيستخرج لوناً جديداً، فيأتي بعد الملاح، والبناء، والصباغ من يدعو ثمار أعمالهم بأسماء جديدة، فيضيف بذلك شراعاً إلى سفينة اللغة، ونافذة إلى بيت اللغة، وثوباً إلى ثوب اللغة»[(١)]. مع استيفاءٍ متناهٍ للمقتضيات والشرائط البيانية والقواعدية التي تَسِم اللسان العربي البليغ.

٥ ـ الاقتراض من اللغة الأجنبية المتفوقة:

الحق أن تاريخ الكلمة يظل على الدوام مرتبطاً بتاريخ الحضارة التي أوجدتها، وأن الكلمات في عصر الثورة المعلوماتية تشبه إلى حد كبير المسافرين إلى الخارج.

وتعد ألفاظ الحضارة بوجه عام المرشح الرئيس لهذه السياحة اللفظية التي ابتليت بها لغات العالم، حيث تنتقل في

---

(١) جبران واللغة العربية ص٢٥٤ و٢٥٥.

شكل سيول جارفة، وجيوش جرارة مع الأدوات الصناعية التي تدل عليها، فإذا لم تقم المجمعات اللغوية العربية بتهذيبها وإخضاعها لأنظمة اللغة العربية، فإنها تأخذ مكانها داخل اللغة دون مراعاة ما يجب أن يتوافر لها من مميزات تجعلها أقرب إلى اللغة التي استدخلتها، ثم تفرض نفسها على المجتمع اللغوي الذي يلجأ إلى الطرق السهلة لسدِّ النقص في التعبير عن الحاجات المتجددة، وانطلاقاً من أن حاجات الحضارة المعاصرة متعددة، فإن الأمم المستضعفة المستقبلة لتلك الحاجات، تضطر إلى استقبال أسمائها المتكاثرة بشكل طوفاني، وعندما يبلغ الأمر المُذَمَّر، ويتسع الخرق على الراقع، تهزل الأمة كما هزلت لغتها، ثم تفضي مع كرور الملوان إلى الثبور والهلاك، كما هو مشاهد اليوم بالنسبة إلى كثير من الشعوب التي فقدت لغتها على إثر التسامح الزائد الذي أظهرته لقبول الألفاظ الأجنبية التي حسمت المعركة اللغوية لصالحها.

وإذا كانت اللغة العربية في مأمن حصين من هذا الفناء الذي تلوح به لغات العالم المتقدم؛ لأن لها قرآناً يحميها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فإن هذه «اللغة العربية الخالدة تواجه الآن وضعاً عجيباً، قومياً وحضارياً.

أما قوميّاً: فهي تقف في مواجهة حشد من اللهجات التي تنتمي إليها، وفي مواجهة جهود تحاول إقصاءها عن مجال الاستعمال، انتصاراً لتيار العاميات.

وأما حضارياً: فإن لغة الحضارة الحديثة وهي الإنجليزية في المقام الأول قد طغت على وجود العربية في مجال العلوم، في داخل الوطن العربي.

ثم إن طوفاناً من الألفاظ الجديدة يتدفق كل يوم على هذه اللغة المعزولة، ويراد منها أن تستوعبه»[1]، هل تستوعبه من خلال اقتراض الكلمات الأجنبية بصورها كما هي لدى الأمم التي أوجدتها، أم يجب أن تتنكب هذه السبيل السهلة، وتركب أهوال الاقتراض بطريق الترجمة؟

إن القول الفصل الذي لا ريب فيه، أن القرآن الكريم قد أخذ بهذين المبدأين رغبة منه في الإحاطة بكل شيء.

قال الثعالبي نقلاً عن بعض المتنطسين: «ليس لغة في الدنيا إلا وهي في القرآن»[2].

ويُعدُّ إدخال القرآن الكريم لألفاظ اللغات الأخرى، إلى اللغة العربية إغناء لمعجمها، ونزوعاً نحو الانتفاع بألفاظ دعت الحاجة إلى استعمالها.

قال ابن المنذر: «حدثنا زكريا، حدثنا محمد بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، حدثني عبد الصمد، سمعت

---

(١) في التطور اللغوي، د. عبد الصبور شاهين ص٧، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٢) المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب ٦١.

وهباً يقول: «ما في اللغة شيء إلا منها في القرآن شيء قليل». قيل: «وما فيه من الرومية؟» قال: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ يقول: «قطعهن»[(١)] إشارة منه إلى سورة البقرة، آية رقم ٢٦٠ التي يقول فيها تعالى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ هـذا هو دأب القرآن الذي اقترض جملة من الألفاظ الأعجمية التي تفردت بها تلك اللغات، لكن ربَّ العزة تصرَّف فيها تصرُّف المقتدر، وألحقها بمفردات العربية بعدما وشاها بألوان الزخرف العربية، حتى إن الذي يمرُّ عليها أثناء القراءة لا يحس فيها أَمْتاً ولا نُبُواً في المواضع التي أدمجت فيها؛ لأنها تمتعت بكامل الحقوق التي توافرت للكلم العربي، بحيث لا يتمكن من إرجاعها إلى أصلها إلا الخناذيذ الذين ضربوا في التنطس بقدم راسخة.

كما يتضح من المعربات الآتية التي احتواها القرآن: (جهنم والصراط والسلوى والمن والشيطان والإفك والبعير والزيتون وسقر والسلسبيل وطه وبيع وسجيل وسندس وسرادق وقسورة وغساق ومشكاة والطور والفردوس واليم والنبي، وهيت وآمين...) وهي عند التدقيق في القرآن ألفاظ لا تنوف عن ثلاث وأربعين ومائة لفظة تكاد تخلو من علامات عجمية الاسم التي حددها أئمة اللغة العربية في سبع هي: أخذ اللفظة من اللغة

(١) المصدر نفسه ص١٠٦ و١٠٧.

الأصل كما هي دون إحداث أي تعديل عليها، وعدم قابليتها للأوزان العربية المعروفة، ومجيء النون والراء في أولها، والزاي بعد الدال في آخرها، واجتماع الصاد والجيم فيها، أو الجيم والقاف ثم آخراً أن تكون اللفظة رباعية أو خماسية خالية من أحرف الذلاقة مثل: الراء، والفاء، والميم، والنون، والباء، واللام(١).

إن واقع اللغة العربية يشهد أن الكلمات المقترضة التي بدأ يستتب لها البقاء، بدأت تملأ لغتنا اليوم بأمشاج من الكلم الإنجليزي والفرنسي التي ربحت رهان السباق في معركة التنافس بينها وبين اللغة العربية؛ لأجل ذلك يجب التنبيه إلى أن الاقتراض على الرغم من المساعدات التنموية التي يقدمها للغة الأمم المتخلفة في الميادين العلمية والصناعية والتجارية والعسكرية والسياحية، فإنه ينطوي على وبال وخيم يهدد سلامة اللغة؛ لأجل ذلك، يجب اختيار أنسب الطرق التي تراعي مصلحة اللغة المقترضة (بكسر الراء)، وتحقق غايات الدمج المنسجم مع طبيعة وظروف اللغة العربية، التي تجعلها الرسائل اللغوية التي وضعها القدامى في موضوعات خاصة في غِنَىً عن تهجير سيل جرَّاف من الألفاظ الأعجمية التي لا تفرضها المصلحة في الوقت الراهن، إذ بمقدور متنطسينا الرجوع إلى

---

(١) المزهر (١/ ٢٧٠).

تلك المعجمات الخاصة التي تجمع المادة اللغوية في موضوع واحد لسد النقص في التعبير عن مستحدثات الحضارة الغربية دون اللجوء إلى استعارة أسمائها إلا عند الضرورة القصوى؛ لأن العجمة إذا بدت فشت، وإذا شاع تداولها اكتسحت واقتلعت الجذور والجذوع حتى لا تبقي للعربية الصحيحة إلا ما يبقيه الوشم في ظاهر اليد.

إذ كم من لفظة أجنبية رعناء أصبحت تتبهنس على أديم العربية، ونظيرتها العربية الدقيقة منا على طرف الثمام، ومع ذلك طوينا كشحنا عنها وجعلناها دبر الآذان. انظر مثلاً إلى الكلمة الآتية: (Echographie) التي ذاع صيتها في تصوير جنس الأجنة وأوضاعها في رحم الأمهات، من دون إحداث أي تغيير على التسمية، وفي أحسن الحالات يطلق عليها: تلفزة الفحص بالصدى، مع أن البحث في كتب التراث العربي يهدينا إلى كلمة (التذْمير) التي تعني إدخال (المُذَمر) يده في رحم الناقة ليعرف نوع الجنين هل هو ذكر أم أنثى. وبهذا يجوز نقل هذا اللفظ اعتماداً على علاقة المشابهة من مجال الاستطلاع الذي يقوم به المذمر إلى مجال الآلة المخصصة لالتقاط الصور التي تعكس مختلف الأوضاع داخل جسم الإنسان، فنولد من الكلمة اصطلاح (مذمرة) بكسر الميم على وزن (مفعلة) أو (مُذْمُرة) بضم الميم الأولى والثانية مثل (مكحلة).

وقُل الشيء نفسه بالنسبة إلى اصطلاحي (الحُلْفُق)

و(التفاريج) اللذين يجب إذاعتهما بدل اصطلاح (الدرابزين)[1] الذي وافق عليه المجمع العلمي العراقي ومجمع اللغة العربية بمصر، على الرغم من أن اصطلاح (الحلفق) أكثر توافقاً ومناسبة الجرس العربي، وهو بالإضافة إلى ذلك الابن الشرعي للعربية الصحيحة.

وهلم جرّاً من الاصطلاحات العربية التي تنتظر من يَهَبُ لها الحياة من أبناء جلدتها مثل اصطلاح (المَثْبَنة) الذي يجب أن يطلق على الكيس الذي تضع فيه المرأة المشط والمرآة وأشياء أخرى، عوضاً عن اللفظة الدخيل (sac). واصطلاحات: المآلي، أو المخضبة والمقرأة والقزع المشار إليها.

والخلاصة، أن الاقتراض اللغوي في عصر العولمة أصبح شراً لا بد منه، مثله مثل باقي الاقتراضات التي تستعين بها الدول الفقيرة أملاً في تحقيق التنمية، غير أن الاقتراضات الأخرى على الرغم من العبء الذي تمثله بالنسبة إلى ميزانية الدولة، إلا أنها تعلم علم اليقين أنها مطالبة بتسديد ديونها في أَجلٍ مسمى، ولذلك، فإنها لا تلتجئ إليها إلا عندما تفرضها المصلحة العامة، أما الاقتراض اللغوي فهو اقتراض من نوع آخر؛ لأنه لا يتطلب استرجاع الديون مرفقة بالفوائد، إنه

(١) معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة، محمد العدناني، مادة رقم ٦٣٤، ص٢١٩، ط ١٩٩٦م، مكتبة لبنان.

اقتراض مجاني، يخترق الحدود والمسافات دون انتظار إبرام الاتفاقيات التي تتضمن شروط ومعايير التسديد وآجالها، من أجل هذا نلاحظ أن هناك إقبالاً واضحاً لدى الأمم المتخلفة في اقتراض كلمات وأشياء الأمم المتقدمة؛ لأنها تعلم مسبقاً أن دفتر التحملات سيبقى صفحات بيضاً، ولن تضطر في يوم من الأيام إلى استرجاع ما اقترضته.

يتضح مما سبق أن الاقتراض مبدأ لغوي قد يحدث في اللغة عفوياً من اللغة المتفوقة اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً وعلمياً إلى اللغة التي تعاني نقصاً وضيقاً في التعبير عن مستحدثات الحضارة الغربية، وقد يكون مدبراً مدروساً من لدن أهل الاختصاص، إما من خلال إدخال بعض التعديلات على اللفظة المقترضة (بفتح الراء) حتى تتوافق مع اللغة المتلقية، وإما بواسطة الترجمة، أو عن طريق التهجين بواسطة ضم عنصر محلي إلى عنصر أجنبي مثل: (السوسيوثقافي والماكرواقتصادي. . .).

حيث إن منتجات عصر العولمة تنزل بسرعة ذاهلة إلى الشوارع والأزقة والمنتديات والمَحَال التجارية والأسواق، فتصبح من لوازم الحياة، فإذا لم يسارع أهل الاختصاص إلى تهذيب أسمائها وإخضاعها لأنظمة العربية، فإنها تفرض اسمها الأجنبي الذي يقبله رجل الشارع ويستسيغه شيئاً فشيئاً حتى تصبح له الغلبة، ومن ثمة يغدو طرده من حظيرة اللغة أمراً مستحيلاً.

إن التقارض اللغوي في العربية، يجب ألا يترك للمصادفة؛ لأن استسهال الاقتراض المجاني، قد يجبر اللغة على الإفلاس، لذا ينبغي أن تتوجه جهود المقترضين إلى اللهجات المحلية، والاصطلاحات المتداولة لدى أصحاب المهن الخاصة؛ لأجل تهذيب الألفاظ المتداولة لديهم حتى تلين وتستجيب لروح العصر، وبذلك نتمكن من إغناء اللغة العربية من الداخل، مع التقليل من ضروب الاقتراض التي لا تفرضها المصلحة العامة، إذ من الثابت أن تهجير مفردات من الأمثال العربية، ومن لغات أصحاب المهن الخاصة وصياغتها ودلكها وتهذيبها، يمكن بلا ريب من إغناء الثروة اللفظية، وسدِّ النقص في التعبير عن أشياء جديدة، كما هو الشأن بالنسبة لاصطلاحات (المذمرة والمخضبة والمثبنة) التي أشرت إليها، والتي تغنينا عن استعمال الأسماء الأجنبية التي وضعت لها، فلا نلتجئ إلى الاقتراض إلا مضطرين لجلب منفعة للغتنا العربية الخالدة؛ لأن الكلمة الدخيل رغم المساعدات التواصلية التي تقدمها للغات التي تنتقل إليها تمثل خطراً يشفع على الدوام السمَّ بالعسل حتى يصيب اللغة المستقبلة لها في المفصل.

يتضح مما تقدم أن اللغة العربية تمثل تمثيلاً صادقاً الأطوار الحياتية التي عرفتها الحياة العربية، فقد عبَّرت عن أغراض المجتمع الجاهلي بألفاظ بدويَّة مُحَسَّة، وعندما ارتقت الأمة بفضل الإسلام، ارتقت معها اللغة، حيث استحدثت

دلالات جديدة وهجرت ألفاظ لم يعد المجتمع بحاجةٍ إليها.

وعندما دخلت الأمة طوراً جديداً، لم تتأخر اللغة عن هذه الجدَّة، على الرغم من أن هذا التطور لم يكن دائماً في صالح العربية الفصحى التي زاحمتها اللهجات العامية، لذلك تجب الإشارة أن هذا البحث لا يعترف بسوى التطورات التي تتجه بالعربية نحو الصفاء والكمال.

أما تلك التي تنحدر بها إلى مستنقع العاميات، فإنني أرى أنه لا وجه لمن يجعل لمظاهر اللحن والخطأ دليلاً على التطورات، من دون أن يتصدى لتلك الانحرافات بالتصحيح والتهذيب والتقنية، كما تصدى لها المنقحون الحُرُص على صفاء العربية، من خلال كتب لحن العامة والخاصة[1] التي تعدُّ اتجاهاً مهمّاً يسعى إلى المحافظة على العربية الفصحى في أصواتها وصرفها وإعرابها ودلالات ألفاظها، على الرغم من أن المقياس الصوابي لم يكن موضع اتفاق تام عند أغلبهم، حيث لم «يتفقوا على الذين تؤخذ عنهم اللغة من الشعراء والرواة، ولم يتفقوا على التوسع في القياس أو تضييق نطاقه، ولم يتفقوا على قبول

(١) انظر: التعريف بكتب لحن العوام وعددها زهاء أربع وثلاثين كتاباً (٣٤) ضمن كتاب: لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، للدكتور عبد العزيز مطر، من الصفحة ٥٧ إلى ص٧٠، وقد أوردها المؤلف حسب الترتيب الزمني لتاريخ وفاة المؤلفين.

ما جاءت به إحدى لهجات العرب مخالفاً للغة المشهورة، أو رفضه لمخالفته الرأي السائد للجماعة اللغوية»[1]، كما لم يتفقوا على قبول المولد، بل جعله أغلبهم نماذج لغوية زائغة عن القواعد العربية التي قررها اللغويون الفصحاء، فانتهت جهود أغلبهم إلى آفاق مسدودة، حيث لم يستجب المجتمع اللغوي لمقياسهم الصوابي الصارم، كما لم يتمكنوا في الغالب الأعم من إبادة التعابير التي حكموا عليها بالمروق واللحن، ونظر إليها المجتمع نظرة قبول فشاعت في الاستعمال الذي زاد من تعرضها للتغيير في بنيتها ودلالاتها تلبية لحاجات المجتمع المتجددة، فجنحت أغلب ألفاظها البدوية الدلالة إلى التعبير عن الأفكار المجردة، كما رأينا سابقاً في جملة من ألفاظ الإبل التي تطورت دلالتها من المعاني المادية المحسَّة إلى المعاني العقلية والقيم المجردة، بل أكاد أقول إن اسم الناقة يرتبط بعلاقة متينة مع لفظ الأناقة، ولذلك وجدوا لها اسم الجمل وجعلوا بينه وبين الجمال نسباً رغبة منهم في أن يوافق ذكاء شَنٍّ وجمال الجمل، أناقة الناقة وفطنة طبقة.

وقد ألمعنا في هذا الفصل إلى أن تطور اللغة راجع

---

(١) لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، د. عبد العزيز مطر ص٤٩، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

لأسباب وعوامل عديدة، يعود بعضها لعوامل لغوية ترتبط بالتوليد والاشتقاق والوضع، وبعضها الآخر لعوامل اجتماعية وحضارية وعلمية ونفسية.

أما العوامل اللغوية، فإن أنظمة اللغة ليست سواء بالنسبة إلى الاستجابة للتطور والتغيير، ويُعد النظام المعجمي من أكثر الأنظمة اللغوية قابلية للتوسعة والتوليد، بينما تميل باقي الأنظمة النحوية والصرفية والصوتية إلى الثبات والاستقرار، على الرغم من التطورات التي تلحق بها استجابة لظاهرة أقل مجهود، أو رغبة في الإتباع والنغمية التي تولدها التوازنات الصوتية، أو توهماً لبعض الصلات الزائفة بين الأصوات اللغوية، أو نتيجة سوء الفهم الذي يعرض لبعض التعابير التي تتلقفها الألسنة، فتشيع حتى تصبح مستوى لغوياً مقبولاً.

أما العوامل الاجتماعية والحضارية والعلمية والنفسية والدينية التي تفضي باللغة إلى تجديد مفرداتها، فإنها ترجع ـ في الغالب الأعم ـ إلى نوعية المجتمع والميول والرغبات التي يسعى الأفراد والجماعات إلى تحقيقها، ثم تأتي اللغة لتعبر عن مظاهر تلك الميول والرغبات أصدق تعبير، بحيث كلما انكمشت الأمة بدا أثر ذلك على لغتها التي تنبذ في زوايا الإهمال، ولا يضاف إلى شجرتها أي عنصر يجدد لها الحياة، وكلما ارتقت الأمة، ارتقت لغتها واتسعت إمكانات تطويرها، وتقلصت ظلال التأثيرات الأجنبية عليها، حتى تسود العالم، ومن ثمة

تترك بصماتها على بقية اللغات التي لا تني تخطب ودَّها لاستعارة اصطلاحاتها وأسمائها وتوليداتها.

كما هو حال العربية اليوم التي اضطرت إلى إغناء معجمها ـ الذي كان يضرب به المثل في الثراء عندما أخذت الأمة العربية بأسباب العلم والمعرفة ـ إما بواسطة التعريب الذي يخضع الألفاظ المقترضة لقوانين العربية وموازينها، مثل الألفاظ الآتية: (الحاسوب، والناسوخ، والتلفاز، والمذياع، والصاروخ، والجرثومة الخبيثة، وجنون البقر، وفقدان المناعة، والملمس، والوحدة المركزية، والفأرة...) وإما من خلال الإبقاء على اللفظ الأجنبي الذي تستعين به العربية للتعبير عن حاجات العصر المتجددة مثل ألفاظ أسماء الأدوية (أسبرين، وأسبرو، ودوليبْران، وأسْبِجيك...) وأسماء المستحدثات التكنلوجية (أنترنيت، والميترو، والبوكيمون...) وهلم جرّاً من الألفاظ والاصطلاحات التي فرضت نفسها على عربية اليوم، كما فرض اصطلاحا (الانتفاضة) و(أطفال الحجارة) نفسيهما على الإعلام الغربي الذي لم يجد في قاموسه اللغوي مقابلاً لكثير من الاصطلاحات التي خلقتها الانتفاضة الفلسطينية المباركة، فأصبح يعلكها علك اللجام؛ لأنها لم تسلس على ألسنتهم، ولم تكن وليدة عبقريتهم، أو نتيجة من نتائج أعراض التطور التي تلحق باللغات من الداخل، إما بواسطة نقل الدلالة، أو من خلال تخصيصها أو رقيها أو انحطاطها.

ثانياً: مظاهر التطور اللغوي في العربية

لقد أثبتنا في الصفحات السابقة أن تطور اللغة ليس سوى مظهر من مظاهر تطور الجماعة التي تستعملها، وأن اللغة العربية اتبعت النهج الطبعي الذي سلكته اللغات العالمية، أملاً في تجديد ثوبها وتفتيق عبقريتها للسيطرة على المواقف المختلفة التي تفرضها الحضارة قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، كما أشرنا إلى أن هذه التطورات تفرض سلطانها على الجماعة اللغوية التي تتكلمها؛ لأنها لا تحدث في اللغة بكيفية عشوائية، وإنما تحدث وفقاً لقوانين راسخة واضحة المعالم، وبالتالي ليس بمقدور أحد أن يحدَّ من انطلاقتها، أو يميل بها إلى سبيل غير السبيل التي تحقق لها توفية حاجات المتكلمين المتاحة في التعبير عن الأغراض المختلفة، حتى وإن كان هذا التطور يسير بها - في بعض الأحيان - نحو التهجين والشحوب الذي يصيبها عندما تغزوها لغة راقية، فتترك في جسدها قروحاً لا تبرأ من سقمها إلا إذا أخذت بأسباب الغلبة والصراع من أجل البقاء.

هذا هو حال اللغات الحية التي تعيش في محيط من الصراع والتنازع نحو السيادة عبر تاريخها الطويل.

وفي غضون هذا الصراع تقصُّ أطراف بعض اللغات، ويفنى بعضها، وينبذ بعضها الآخر.

أما اللغة العربية فهي باقية على الدوام؛ لأن لها قرآناً

يحميها وأشعاراً تخلِّد ذكرها، إذ من خلال تلك الأشعار نستطيع أن نرصد الكثير من مظاهر تطورها، حيث كانت في عصر جاهلية الأمة العربية بدوية خالصة تطغى عليها النزعة الحسية المادية في كل شيء «فالأمة هي الجماعة التي تؤم مكاناً واحداً، أو تأتم بقيادة واحدة، والشعب هو الجماعة التي تتخذ لها شعبة واحدة من الطريق، والفئة هي الجماعة التي تفيء إلى ظل واحد، والنفر من القوم: من ينفرون معاً للقتال أو لغيره، والقوم في جملتهم: هم الذين يقومون قومة واحدة للقتال خاصة. . . والجيش من جيشان الحركة في الأمكنة المتعددة، أو المكان الواحد، والجند ـ على الراجح ـ يرجع إلى «الجند» بفتح الجيم والنون وهي الأرض الغليظة التي لا يسهل طروقها»[1].

والفصاحة صفة للبن، والقرين اسم للجمل الذي يقرن مع غيره ليلين طبعه بواسطة حبل يسمى القرن، والبلاط اسم للحجارة المفروشة في الدار وغيرها، والعذراء دُرة غير مثقوبة، والمنحة إعارة الناقة أو الشاة ليستفاد من لبنها، والورطة الطين المبلل تقع فيه الدواب، والسطر الصف من شجر النخيل، والسبر امتحان غور البئر لمعرفة عمقها، والمذاق مزج اللبن بالماء، والاستنباط خاص بعمل النبط الذي هو استخراج الماء،

(١) علم اللغة بين القديم والحديث، د. عبد الغفار حامد هلال ص٢٣٦، ط٣، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، مطبعة الجبلاوي.

والمخضرم هي الناقة التي قطع طرف أذنها وكان أهل الجاهلية يخضرمون أنعامهم، والحنين ترجيع الناقة صوتها إلى صغيرها، أو اشتياقها لموطنها، والجسر والجسور صفة للناقة الصلبة القوية على السير، والأفن قلة اللبن في ضرع الناقة، وغيرها من الألفاظ البدوية التي انتقلت دلالتها من أصل وضعها المحس إلى الدلالة على المعاني المجردة الراقية من دون أن تقطع حبل المودة بينها وبين مصدرها الأصيل.

بل إن حشرجة السيارات وأزيز الطائرات وزخرفة المباني والتأنق في المأكل والملبس، لم تستطع كلها أن تبيد الصور والأخيلة والمجازات التي تعبِّر عن عبقرية اللغة وهويتها، بل إنها لن تستطيع في قادمات الأيام أن تنغمنا أنغاماً لذيذة كما تطربنا الأمثال البدوية الآتية: (أخذه برمته)، والرُمة الحبل البالي في عنق الجمل، (يخبط خبط عشواء) والعشواء الناقة التي لا تبصر، فهي تخبط كل شيء تمر به، و(القشة التي قصمت ظهر البعير)، و(ضرب إليه أكباد الإبل)، و(وضع الهناء مواضع النقب) وغيرها من الأمثال البدوية الأصباغ التي لم تستطع حضارة العولمة أن تسطو عليها وتبيدها من حياتنا المعاصرة، أو تقلص أظلالها من وجودنا اللاهت نحو اقتناء منتجات مصانع الغرب؛ لأنها أمثال كتبت لدلالاتها الحياة، فاستمرت مع ألفاظها لأنها لم تفقد صلاحية الاستمرار في الحياة المعاصرة، على الرغم من أن دلالاتها ظلت ـ عل الدوام ـ عرضة للتغير،

بل إنها تغيرت عندما اتسعت حواضر العرب بفعل الإسلام، فنقلت ألفاظ العربية «من مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت، فعفى الآخر الأول. . .

فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق، «وأن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان، والإيمان هو التصديق، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سمي المؤمن بالإطلاق مؤمناً، وكذلك الإسلام والمسلم، وإنما عرفت منه إسلام الشيء ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء، وكذلك كانت لا تعرف من الكفر إلا الغطاء والستر.

أما المنافق فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه، وكان الأصل من نافقاء اليربوع».

ولم يعرفوا في الفسق إلا قولهم: «فسقت الرطبة» إذا خرجت من قشرها، وجاء الشرع بأن الفسق الإفحاش في الخروج عن طاعة الله جل ثناؤه»(١).

والصلاة التي كانت تعني مجرد الدعاء فأصبح لها مدلول

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، علق عليه ووضع حواشيه: أحمد حسن بسج ص٤٤ و٤٥، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، دار الكتب العلمية، بيروت.

آخر، وغيرها من الألفاظ؛ كالصيام والحج والعمرة والزكاة مما يطول ذكره.

وقد أثبت الثقات الخناذيذ في العربية جملة من التطورات التي طرأت على الألفاظ والتراكيب بين الجاهلية والإسلام انسجاماً مع تغير القيم الفكرية والدينية للمجتمع الإسلامي.

اللغة العربية إذن كائن شديد الطواعية والقابلية للتغيير والتطوير الصحيح، الذي يجب أن يحتفظ بخيط دقيق مع الأصول المولِّدة للدلالات الجديدة اتساعاً وضيقاً ومجازاً وتشبيهاً، بشرط ارتباط هذه المولدات بالعبارة القرآنية التي وحدت الأمة العربية، والتي أثبتت على مر الأعصر أنها أشمل من قواعد اللغة، مهما كانت هذه القواعد شاملة ومطردة، ولعل في الإشارة إلى ضروب التجوُّز التي تنبه إليها علماء العربية أقوى الأدلة على طواعية العربية وجنوحها إلى استغلال أقصى الإمكانات المتاحة في التعبير عن الأغراض المختلفة بحسب الظروف والمقامات، فقد تصور العرب معنى الواحد في الجماعة، والجماعة في الواحد، وأنثوا المذكر وذكروا المؤنث، وحملوا على المعنى، وحذفوا ما دل عليه دليل، وقدموا ما حقه التأخير، وهي كلها تجوُّزات نطق بها القرآن وفصيح الكلام شعراً ونثراً «حكى الأصمعي عن أبي عمرو قال: سمعت رجلاً من اليمن يقول: فلان لغوب، جاءته كتابي فاحتقرها، فقلت له:

أتقول جاءته كتابي! قال: نعم أليس بصحيفة»[1]، وقد عدَّ ابن جني باب الحمل على المعنى بحراً لا يدرك عمقه، وفصلاً واسعاً لطيفاً طريفاً يدعو إلى الأنس والتفقه في أسراره.

وإذا كان الهدف من هذا البحث هو عرض بعض الأوجه التي تسلكها المعاني في تطويرها وانتقال دلالاتها، فإنه تجب الإشارة إلى أن المعنى الوضعي في الكلمة لا يثبت نظراً لما تحمله الكلمات من أعباء السنين، وتصاريف الأيام، واختلاف البيئات والطبقات الاجتماعية، حيث تكتسب الكلمات خلال حياتها اعتماداً على طريقة النقل المجازي، أو بواسطة التشبيه، دلالات جديدة تتولد من خلال الاتساع في المعنى، أو من خلال التضييق والانكماش، أو مراعاة لما تتعرض لها اللفظة من عوارض الابتذال والاستخفاف، أو ما تكسبه من عِزَّةٍ ورُقي، أو ما يتولد عنها من معان ثانوية تسعى إلى الظهور على المعنى القديم، وهي كلها تطورات يمكن حصرها في الأشكال الآتية:

١ ـ انتقال مجال الدلالة:

اللفظ إذا كثر استعماله لا يثبت على حال واحدة، وإنما ينتقل من دلالته الأصلية إلى دلالة أخرى قائمة على المشابهة أو اعتماداً على علاقات المجاز المرسل؛ كالسببية والمسببية

---

(١) الخصائص (١/ ٢٤٩).

والمجاورة الزمكانية والبعضية والكلية. وهي كلها علاقات تسوغ الانتقال إلى معنى جديد لا يقطع الصلة بالمعنى القديم، لكن هذا الانتقال يجنح نحو الإيهام بعدم اشتراك الدلالتين في الفكرة المحورية التي يسعى المعنى الجديد إلى طمسها، كما تجلي الأمثلة الآتية ذلك:

سجل: سقيته سَجْلاً وسِجالاً وهو الدلو العظيمة، وساجله: باراه في الاستقاء... ومن المجاز، ساجله: فاخره مساجلة. و«الحرب سجال» مرة على هؤلاء وأخرى على هؤلاء[1]. هذه الدلالة الجديدة التي اكتسبتها اللفظة بمعنى الجدال والمناظرة، لم يكن فيها شيء مما عرفه القدامى، وإن ذهبوا في معناها إلى المبادلة والمعاقبة.

الرائد: في الأصل تطلق اللفظة على الشخص الذي يرسل لطلب الكلأ، ويتقدم قومه يدلهم على مساقط الغيث ومصادر الكلأ، وفي أساس البلاغة: «بعثنا رائداً يرود لنا الكلأ ويرتاد... وامرأة رادة، وقد رادت ترود: اختلفت إلى بيوت جاراتها... وأدار الرحى بالرائد وهو يدها...»[2].

غير أن اللفظة قد وقع فيها تحول دلالي في الاستعمال

---

(١) أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ص٢٨٦، دار الفكر، بيروت.
(٢) المصدر نفسه ص٢٥٧.

المعاصر مثل قولنا: هذه فكرة رائدة، وهذا مفكر رائد بمعنى زعيم ومقدَّم في ميدانه؛ بل إن الوِرْدَ أصبح يطلق على الأشياء المعنوية والمادية مثل قولنا: رواد الفضاء، ورد الخبر الفلاني حالاً...

سبر: سَبَر الجرح بالمسبار والسِّبار: قاس مقدار قعره بالحديدة أو بغيرها، وفي المثل: لولا المسبار ما عرف غور الجرح، وسبرت البئر: امتحنت غورها لمعرفة عمقها. ومن المجاز قولهم: خبرت فلاناً وسبرته، وفيه خير كثير لا يسبر، وهذا أمر عظيم لا يسبر، وهذه مفازة لا تسبر، وسبرت الأمر: جربته واختبرته.

محض: تقول العرب: لبن محض؛ أي: خالص بلا رغوة، ومحضت القوم وأمحضتهم: سقيتهم محضاً... ومن المجاز: عربي محض، وسيد محض، وفضة محضة؛ أي: خالصة.

مذق: مذق اللبن بالماء يمذقه، ومذق الشراب: مزجه فأكثر ماءه، ولبن مذيق... ومن المجاز: فلان يمذق الود، ووده ممذوق... وفلان مذاق: كذاب[1].

العقيقة: هو الشعر الذي يولد به الطفل لأنه يشق الجلد، ثم انتقلت دلالة اللفظ اعتماداً على علاقة المجاورة الزمانية، إلى

---

(١) المصدر نفسه ص٥٨٦.

الدلالة على الذبيحة التي تنحر في اليوم السابع مع حلق ذلك الشعر.

هند: تقول: أعطاه هنيدة؛ أي: مائة من الإبل، وهنداً مائتين. قال جرير:

أعطوا هُنَيْدة يحدوها ثمانية ما في عطائهم مَنٌّ ولا سَرَفُ

ثم انتقلت الدلالة إلى مائة سنة يعيشها الرجل، قال أحدهم:

ونصر بن دُهمان الهنيدة عاشها وخمسين عاماً ثم قُوم فأنصاتا

ويمكن تعليل تسمية الإنسان العربي ابنته (هند) أنه كان ينظر إليها أنها ستكون غالية المهر.

الديوان: كانت اللفظة في الأصل تطلق على الدفتر الذي تدون فيه أسماء الجند، ثم استعملت في المكان الذي يحفظ فيه، ثم انتقلت الدلالة إلى مجموع قصائد شاعر معين مثل: ديوان محمود درويش، وديوان سميح القاسم، وديوان محمد مهدي الجواهري، وديوان أحمد شوقي وهلم جرّاً.

عذم: فرس عذوم؛ أي: غضوض، قال الفرزدق:

يعْذِمْن وهي مُصِرة آذانها قصرات كل نجيبة شِمْلال

يعني: أنها تعارضهن فتلاعبهن، ثم انتقلت الدلالة إلى معنى مجرد؛ يعني: اللوم والعذائم هي اللوائم، وهذا يعذم صاحبه؛ أي: يلومه لوماً شديداً.

التنزه: وهو في الأصل: التباعد عن المياه والأقدار، ثم انتقلت دلالة اللفظة إلى الخروج إلى البساتين؛ لأن البساتين في كل بلد تكون خارجه، فإذا أراد أن يذهب إليها، فقد أراد أن يتنزه؛ أي: أن يتباعد عن البيوت والمساكن وينتجع الخُضر والجنان.

التوتر: أصله اشتداد العصب والعرق. ومن المجاز قولهم: توتر عصبه، وفرس موتر الأنساء؛ أي: فيها شَنَج كأنما وترت توتيراً. ومن العبارات المحدثة التي نسمعها من وسائل الإعلام قولهم: توترت العلاقة بين أمريكا ودولة العراق؛ أي: ساءت ومالت إلى الشدة. وهلم جرّاً من سيل الكلمات التي دخلها المجاز، فولد لديها دلالات جديدة لم تكن معروفة من قبل، مثل قولنا: جسم المشكلة، وعقد المناقشة، وهذا استقبال حار، وأبعث إليك سلامي الحار، وهذا لون دافئ، وسمعت صوتاً حلواً، ناهيك عن توظيف أعضاء الإنسان والحيوان وما يستعار منها، مثل قولهم: رأس المال، ووجه النهار، وإنسان العين، وعين الرضا، وعين العقل، وفم الفتنة، وأسنان المشط، وجرح اللسان، وأعناق الرياح، وكلكل الدهر، وحبل الوريد، وثمار النحور، وكبد السماء، ورجل الطاولة، وعنق الزجاجة، ورأس الجبل، وفم الزمان، وظهر الأرض وبطنها، وسمع الأرض وبصرها...

٢ ـ تعميم الدلالة:

وهو إجراء يلحق بالكلمات فينتقل معناها من معنى ضيق كان هو المراد في أصل الوضع، إلى معنى أو معان أكثر اتساعاً، حيث إن كثرة استعمال المعنى الخاص في المعاني العامة بواسطة توسيع الدلالة، تبلي مع مرور الأيام المعنى الخاص الذي تدور عليه الدوائر، فتتحول دلالته بكيفية معقدة لا يدلنا عليها سوى المعجمات التي تعنى بتأثيل الكلمات، وما تتعرض إليه في أثناء حياتها من تغيرات لا يمكن استطلاع مصيرها، ما دام أي معنى «لا يستطيع أن يضمن لنفسه البقاء مطلقاً، فهو محوط بمعان ثانوية تتحفز دائماً للظهور عليه، ويحلُّ نفسه محلَّ القديم كما يمتص فرع الشجرة العصير إلى أن يذوي الجذع الأساسي، وعندئذ تجد الكلمة نفسها وقد تغير معناها»[(١)] الأصلي إلى معنى آخر اقتضته الظروف اللغوية والحضارية، من دون أن يكون لأحد يد في ذلك التغيير أحياناً، وأحياناً أخرى تقوم الجماعة اللغوية بنفسها بذلك التغيير المقصود بتوجيه من العلماء المخضربين المتنطسين في اللغة، بهدف توسيع المعنى كما يلوح من التغيرات التي لحقت بالكلمات الآتية:

الغاية: تؤكد المعجمات أن أصل الغاية هو الراية. قال الزمخشري: «اجتمع تحت غايته كذا ألفاً؛ أي: تحت رايته»[(٢)]،

---

(١) علم اللغة بين القديم والحديث ص٢٠٧.

(٢) أساس البلاغة ص٤٦٠.

وقد سميت نهاية الشيء غايته «لأن كل قوم ينتهون إلى غايتهم في الحرب؛ أي: رايتهم، ثم كثر حتى قيل لكل ما ينتهى إليه: غاية، ولكل غاية نهاية، والأصل ما قلناه»[1].

الركب: هو راكب البعير خاصة. وفي غيره يقال: فارس، وحَمار، وبَغال، ثم عممت دلالة الراكب لتشمل ركوب كل شيء سواء كانت وسيلة الركوب بدوية، أو كانت من مستحدثات هذا العصر.

الفرصة: هي النوبة تكون بين القوم يتناوبون على الماء. جاءت فرصتي من السقي؛ أي: نوبتي.

يقال: إذا جاءت فرصتك من البئر فأدل، قال الشاعر:

تراها وقد زادت يداها قَبَاضَة كأوبِ يَديْ ذي الفُرْصة المُتَمتح

ثم عممت دلالة اللفظة لتشمل كل شيء ترجو نواله فرصة فقالوا: أصاب فلان فرصته، والأيام فرص...

الاستنباط: ترجع دلالة اللفظة إلى عمل النبط، وهو استخراج المياه، ثم صار كل استخراج للماء يسمى استنباطاً. تقول: هم انبطوا الماء واستنبطوه، ثم زاد التعميم فشمل المعنويات وغيرها، ومن ذلك: استنبطت من فلان خبراً. واستنبطت معنى مفيداً ورأياً صائباً...

---

(١) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق وضبط: حسام الدين القدسي ص٢٤٢، ط ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، دار الكتب العلمية، بيروت.

المنيحة: تقول: أعطاني فلان منيحة ومنحة وكوفاً، وهي الناقة أو الشاة تعطى لشرب لبنها، قال ذو الرُمة:

نَبَتْ عيناك عن طلل بِحُزْوى   محته الريح وامْتُنِح القِطارا

ثم عممت دلالة اللفظة حتى صارت كل عطية منحة ومنيحة، تقول: منح الرجل المال غيره.

وفي الحديث: «**من منح منحة ورق أو منح لبناً كان كعِدْل رقبة**».

الوغى: وهو في الأصل اختلاط الأصوات في الحرب، ثم عممت الدلالة فصارت الحرب تسمى الوغى.

النُجْعة: هي في الأصل طلب الغيث والكلأ، ثم عممت دلالته فصارت كل طلب انتجاعاً، تقول: انتجعت فلاناً؛ أي: طلبت معروفه، قال ذو الرمة:

رأيت الناس ينتجعون غيثاً   فقلتُ لِصيْدحَ انتجعي بلالا

الثرثار: الذي يكثر القول في الباطل، ثم عممت دلالة اللفظ، فصار كل مكثر للكلام ثرثاراً سواء كان في الباطل أو في غيره.

العربة: هي النهر الشديد الجري، ثم أطلقت اللفظة على سفن رواكد كانت في دجلة، ثم عممت دلالة اللفظة فصارت كل مركبة ذات عجلتين أو أربع عربة[1].

---

(١) المعجم الوسيط (٢/ ٥٩١).

الحمولة: وهي الإبل التي تحمل الأمتعة خاصة، ثم تحولت الدلالة للإبل التي تحمل أي شيء، ثم عممت فصارت كل شيء يحمل حمولة.

الكأس: في الأصل لا تطلق هذه اللفظة إلا إذا كان الإناء مملوءاً، فإن كان فارغاً فهو قدح وزجاجة، قال تعالى من سورة الإنسان، آية رقم ٥: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾(١)، ثم عممت دلالة اللفظة فصار كل قدح وزجاجة يسمى كأساً ولو كانت فارغة؛ بل لقد شاعت اللفظة فدخلت ميدان التباري في الرياضة وأصبحنا نسمع عن كأس الأندية العربية، والكأس العالمية.

القُرب: هو في الأصل طلب الماء، ثم أصبح يقال لكل طلب، تقول: لا تقرب هذا الأمر؛ أي: لا تطلبه...

الفصاحة: هي في الأصل اللبن، أخذت رغوته أو ذهبت رغوته أو ذهب لباؤه وخلص منه، أفصحت الشاة: فصح لبنها. ومن المجاز قولهم: أفصح الصبح، وهذا يوم مُفْصح وفِصْح لا غيم فيه ولا قُر، وأفصح العجمي: تكلم بالعربية، وفَصُح: انطلق لسانه بها وخلصت لغته من اللكنة، والفصاحة: حسن الكلام وجودته.

---

(١) انظر مثل ذلك في: سورة الصافات، آيات ٤٥ و٤٦ و٤٧، وفي سورة الطور: آية ٢٣، وفي سورة الإنسان: آية ١٧.

المجد: وهي لفظة حولتها الحضارة من معناها القديم الذي يعني امتلاء البطن، تقول: أمجد الإبل: ملأ بطونها علفاً وأشبعها، ومَجَد الناقة علفها ملء بطونها، إلى معنى نبيل شريف يدل على امتلاء حياة الشخص بالشرف والخلق الحسن.

جاء في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أما نحن بنو هاشم فأنجاد أمجاد»؛ أي: شراف كرام.

القطار: تقول: رأيت قطاراً من الإبل وقُطراً، وإبل مقطورة ومقطرة، وهي مقطور بعضها إلى بعض. ومن المجاز: تقاطر القوم: جاؤوا أرسالاً، وتقاطَرت كتب فلان بمعنى جاءت متتابعة. غير أن دلالة اللفظة قد انتقلت من مجال الوسيلة البدوية التي كان العربي يستعملها في رحلته عبر الفيافي، إلى مجال آخر استدعته الحياة المعاصرة، هو القطار المعروف الذي يسير على سكة حديدية ويتكون من مجموعة من المركبات التي تجرها قاطرة.

الرقَصُ: في الأصل ضرب من سير الإبل، قال حسان بن ثابت:

بزجاجة رقصت بما في قعرها رَقَصَ القَلوص براكبٍ مستعجِلِ

ورقص الشراب: أخذ في الغليان، والرقْص والرقَصَان: الخبب، والراقصة على سبيل المجاز: المرأة التي تحرك جسدها بفتنة بارعة لاستمالة الناظرين، فكأنهم شبَّهوا حركاتها بالإبل الراقصة.

الورطة: هي في الأصل تعني الوحل تقع فيه المواشي، تقول تورطت الماشية؛ أي: وقعت في موحل ومكان لا يتخلص منه، ثم انتقلت دلالة اللفظة إلى معنى مجرد، يفيد البليَّة والمشكلة التي يصعب الفكاك منها.

التحرير: كانت اللفظة في الأصل تعني إصلاح الخطأ والاعوجاج في الكتابة، وتحسينها بتقويم سقطها، ثم تحولت دلالتها إلى المعنى العام المستعمل الآن: وهو الكتابة وإنشاء الكلام بصفة عامة، نقول: لجنة التحرير؛ أي: لجنة الكتابة والصياغة.

وغيرها من الألفاظ التي انتقلت دلالتها من المعنى الحسِّي، إلى معنى آخر مُحس، أو من معنى مُحس إلى معنى مجرد معنوي أوسع من المعنى الأصلي، مثل ألفاظ: الحنين والخجل والعشواء والذود والجران والخداج وغيرها من ألفاظ الإبل التي توسعت دلالتها مع كرور الأيام.

٣ ـ تخصيص الدلالة:

كثيراً ما تتقلص دلالة اللفظ من العموم إلى الخصوص، ويضيق استعماله فيقتصر على جانب من جوانب الدلالة، وهي تغيُّرات اجتماعية تلحق بالألفاظ تبعاً لحاجات المجتمع اللغوي، أو انسجاماً مع التغيُّرات العقدية، كما حدث لكثير من ألفاظ العبادات التي حدد الدين الإسلامي مجال استعمالها، وخصَّصها

بدلالات محددة لا يكاد الذهن ـ عندما تطلق ـ ينصرف إلى غيرها، ومن ذلك، الألفاظ الآتية:

الإيمان: حيث كانت دلالته تنصرف إلى الأمان على العرض والمال، ثم تحولت إلى التصديق بكل شيء، ثم لما جاء الإسلام خصص اللفظة بالتصديق بالله ورسله وكتبه وملائكته والقدر خيره وشره.

الصلاة: التي كانت بمعنى الدعاء، ثم جاء الإسلام وخصص دلالتها بالصلاة المعروفة المكتوبة على المسلمين خمس مرات في اليوم، بجميع أفعالها وأقوالها المعروفة، وقُل الشيء نفسه بالنسبة إلى ألفاظ العبادات الأخرى: الحج والصوم والزكاة والعمرة ناهيك عن الألفاظ الإسلامية الأُخَر مثل: المسلم والمنافق وبيت الله وهلم جرّاً.

السبت: يؤكد السيوطي أن هذا اللفظ في غاية الحسن على الدلالة المخصوصة، حيث إن السبت في اللغة هو الدهر، «ثم خص في الاستعمال لغة بأحد أيام الأسبوع، وهو فرد من أفراد الدهر»(١).

الفنان: الحمار الوحشي الذي يأتي بفنون من العدو، قال الأعشى:

---

(١) المزهر (١/ ٤٢٧).

وإن يكُ تقريبٌ من الشد غالَها بِميْعة فَنانِ الأَجاري، مُجْذِم

ثم خصصت الدلالة في التفنن في ضروب القول، والرسم، والغناء. . .

الإسكاف: هو اسم لكل صانع، غير أن المجتمع اللغوي قص أطراف هذه اللفظة حتى أصبحت مخصوصة بصانع الخفاف.

العروس: اسم يطلق على الذكر والأنثى، ثم خصصوا الاسم وربطوه بالمرأة خاصة، أما الرجل فقالوا له: العريس.

المأتم: وهو جماعة النساء المجتمعات في الخير والشر. إلا أن المتأخرين قصروا اللفظ على الاجتماع في الشرور والمصائب.

العذراء: هي الرملة التي لم توطأ، أو درة غير مثقوبة، أو اسم مدينة الرسول ﷺ؛ لأنها لم تصب بمكروه. والملاحظ أن كل هذه الدلالات قد أصابها البلى فأصبحت اللفظة تستعمل في وصف الجارية البكر التي لم تفتض عذرتها.

الشرطي: من الشرطة وهي العلامة. جمع شُرَط بفتح الراء، وقد سمي الشرطي هكذا لأنه يحمل علامة، ومنه شرطة الحرب وصاحب الشرطة، والصواب في الشرطي سكون الراء نسبة إلى الشرطة.

التلاميذ: **أو التِلام**: هو اسم أعجمي يراد به الصاغة،

وقيل: غلمان الصاغة، ثم خُصِّصت دلالة اللفظة في التلاميذ الذين يذهبون إلى التعلم في المؤسسات التعليمية.

الكعبة: هي في الأصل كل بناء مربع الشكل، ثم غلب اللفظ على الكعبة المشرفة بيت الله في مكة، قال الأعشى:

وكعبة نجران حتم عَلَيْـ ـكِ حتى تُناخي بأبوابها

الصفقة: هي ضرب يسمع له صوت، ثم خُصِّصت اللفظة في عقد البيع، وأصل ذلك أن البيع كان يتم بضرب يد البائع على يد المشتري.

الرث: هو كل شيء خسيس، ثم اختصت دلالته بما يُلبس أو يُفترش.

الصينية: هي ماعون من الخزف الصيني أو نحوه، خاص لتوضع عليه أواني الطعام والشراب، إلا أن دلالتها أصابها الانكماش، حيث أصبحت خاصة بالآنية من النحاس أو الفضة أو الذهب، التي يوضع عليها الإبريق والزجاجات في أثناء إعداد الشاي أو القهوة.

المصحف: مجموع من الصحف في مجلد، وقد سُمِّي كذلك بضم الميم وكسرها؛ لأنه يجمع الصحف المكتوبة بين الدفتين. غير أن دلالة الكلمة وقع فيها تخصيص، حيث أصبح المصحف يعني القرآن الكريم المتعبد بتلاوته.

الصِحافيون: قد يراد بها الذين يأخذون العلم

من الصحائف، أو الذين يصحفون الكلام ويلحنون. غير أن الاستعمال العصري قصر دلالة اللفظة على الذين يشتغلون بمهنة الصحافة؛ أي: الذين يجمعون الأخبار والآراء، وينشرونها في الصحف والمجلات.

وغيرها من الألفاظ التي كانت دلالتها الأصلية تستعمل في التعبير عن أشياء، ثم لما جاء الإسلام حدد دلالتها في معان خاصة مثل: النفاق، والحج، والعمرة، والزكاة، والصوم، والتيمم، والشهادة، والذكر..

٤ ـ رقي الدلالة:

تتعرض بعض ألفاظ اللغة لأشكال التحولات الاجتماعية والسياسية والدينية. وتبدو أعراض هذا التحول على دلالة الألفاظ التي تنزع تارة نحو الرقي، وتارة أخرى نحو الانحطاط، تبعاً لميول المجتمع ورغباته التي يستمدها من السلطة الدينية أو السياسية أو الحضارية. لذا فإن الألفاظ التي ارتقت دلالتها، تستمد رقيها من هذه السلطات، حيث تكون دلالتها الأصلية عادية أو وضيعة، ثم تتحول إلى دلالة أرقى وأشرف. ومن ذلك الكلمات الآتية:

الرسول: وهي لفظة تعني مجرد شخص يرسل في مهمة محددة، وقد تكون هذه المهمة وضيعة، كما يمكن أن تكون جليلة. غير أن الإسلام أكسب اللفظة شرفاً ورقياً عندما خصَّها

بشخص الرسُل والأنبياء الذين حملوا الرسالة السماوية. وبهذا اكتسبت اللفظة دلالة راقية عند المسلمين نظراً لارتباطها بشخص النبي محمد ﷺ.

الجمهور: في أصل اللغة تعني: الرمل الكثير المتراكم الواسع، ثم حدث سُمُوٌّ في اللفظة حيث انتقلت دلالتها بواسطة التشبيه إلى جماعة القوم. وفي حديث ابن الزبير الذي قال لمعاوية: إنا لا ندع مروان يرمي جماهير قريش بمشاقصه؛ أي: بسهامه ومنه: الجماهير العربية، وجمهور المتفرجين..

القريض: كانت اللفظة تطلق على نوع من الشعر السطحي، وهو الذي يعرف عند العامة باسم (قِراد)، ثم ارتفعت دلالة اللفظة للتعبير عن جنس الشعر بصفة عامة. ومنه قولهم: فلان يتعاطى القريض؛ أي: ينظم الشعر، وله قريض حسن.

القرين: ترجع اللفظة في أصل وضعها إلى «الجمل أو الناقة تكون فيهما خشونة، فيربط أحدهما إلى الآخر، حتى يلين أحدهما، ويسمى الحبل الذي يجمع بينهما القَرَن»[1].

وقد ارتفعت دلالة اللفظة حتى اكتسبت معنى الصاحب والخليل.

التميز: تميز القوم وامتازوا: إذا صاروا في ناحية قال

(١) قطوف أدبية، دراسات نقدية في التراث العربي، عبد السلام محمد هارون ص١١٥ و١١٦.

تعالى من سورة يس، آية ٥٨: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾؛ أي: تميزوا، غير أن دلالة اللفظة ارتفعت فأصبحت تعني التباعد لمزية. وفي الحديث: «**لا تهلك أمتي حتى يكون بينهم التمايل والتمايز**»؛ أي: حتى يتميز بعضهم من بعض، ويقع التنازع.

البيت: هو في الأصل خباء من صوف أو شعر، سواء كان صغيراً أو كبيراً، ثم ارتفعت دلالة اللفظة للدلالة على البناء الفخم المعروف في المدن والحواضر.

وغيرها من الألفاظ التي تطورت دلالتها باتجاه الرقي، كما الشأن بالنسبة إلى كلمات: التلام أو التلاميذ، وأطفال الحجارة، والأخت الملتزمة وكثير من ألفاظ الجماع الواردة في القرآن الكريم مثل: الإفضاء والرفث والحرث والملامسة والمباشرة...

٥ ـ انحطاط الدلالة:

هناك العديد من الكلمات التي يُعد تطورها نتيجة للتحولات الاجتماعية والدينية والسياسية والنفسية والذوقية، إذ تلحق الخسة بعض الألفاظ على إثر تطورات الذوق في الحياة العامة، فتحل محلها ألفاظ تنسجم مع درجة التمدن والتغير اللذين تصل إليهما الجماعة اللغوية. «وقد تسوء سمعة الكلمة لطول ارتباطها بمدلول غير كريم، فتطرح هذه الكلمة وتستعمل كلمة أخرى في مكانها غير مثقلة بارتباطات ممجوجة من جهة

المعنى فتستخدم فيه أولاً على طريق المجاز. ويُعد عنصر الدلالة المجازية فيها مناط التبرير في قبولها، حيث يعتبر استعمالها المجازي نوعاً من التنزه عن ذكر الكلمة الأولى التي ساءت سمعتها، ثم يطول الأمد على استعمال الكلمة الثانية فتسوء سمعتها أيضاً، ولا يزال هذا المدلول الممجوج يستهلك الكلمات واحدة بعد الأخرى إلى ما لا نهاية»[1].

غير أن هذا الانحطاط والابتذال «في الألفاظ وما تدل عليه ليس وصفاً ذاتياً ولا عرضاً لازماً، بل لاحقاً من اللواحق المتعلقة بالاستعمال في زمان دون زمان»[2]، ومكان دون آخر، مثل ألفاظ قضاء الحاجة، التي يسعى العُرْفُ إلى تغييرها بسواها كلما استشعر خستها وخدشها للحياء العام. فهي عند جماعة لغوية إما غائط أو خلاء أو بيت الأدب أو مرحاض أو (كابينة)، أو (تْواليتْ) الأجنبيتين أو غيرها. كما أن لفظة القحبة من الألفاظ التي انحطت دلالتها فاستبدل بها المجتمع لفظة المومس أو البغي.

وقد كان للعرب مبدأ قديم يؤكد حرصهم على قلب المسميات التي لا تعجبهم إلى أضدادها نظراً لانحطاط دلالتها،

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان ص٣٢٢ و٣٢٣، ط ١٩٩٤م، دار الثقافة، الدار البيضاء.
(٢) المزهر (١/ ١٩١).

فيجعلون المنحط منها مقبولاً مثل قولهم: البصير للأعمى، والمفازة للصحراء المهلكة، والسليم للملذوغ، والمبروكة للحمى... «وقد يخاف على شيء حسن من الحسد، فيوصف بوصف قبيح خشية أن تصيبه العين، كما يقال للفرس الحسنة: (شوهاء)، والبعير الصحيح: (قرحان)، كأنما أصاب الفرس تشوه، والبعير جرب مع أن شيئاً لم يحدث»[1]، وإنما الغرض هو تجنب تلك الأنعام أعين الحساد.

كما يلاحظ أن الغرب المسيحي يسعى جاهداً ـ إن استطاع إلى ذلك سبيلاً ـ لكي يجعل اصطلاح (الإرهاب) الذي أمر الله المسلمين أن يأخذوا بأسبابه حتى يأمنوا مكر الصليبيين في قوله تعالى من سورة الأنفال، آية رقم ٦٠: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ...﴾، يسعى الغرب ومن لف لفَّه ليحطَّ من دلالة لفظة (الإرهاب)، ولا سيما بعد نجاحه في إلحاق الخسة بكثير من الألفاظ والاصطلاحات التي كان لها وزن اعتباري لدى الأنظمة الشيوعية، حيث تم استبدال كثير من ألفاظ السوق الحرة بألفاظ العهدين الاشتراكي والشيوعي البائدين، على التحولات السياسية والاجتماعية التي لحقت ببلدان المعسكر الشرقي عامة.

---

(١) علم اللغة بين القديم والحديث ص٢٢٥.

ومن الكلمات التي انحطت دلالتها اتباعاً لميولات المجتمع اللغوي والمجال التداولي العربي:

الاستعمار: لعل أقدم نص يورد هذه اللفظة هو القرآن الكريم في قوله تعالى من سورة هود، آية رقم ٦١ حكاية عن النبي صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...﴾؛ أي: أذن لكم في عمارتها واستخراج قوتِكم منها، وجعلكم بُناتها وعُمَّارها.

ثم أورد الثعالبي اللفظة ضمن عرضه للمسوغات التي دفعته لتأليف معجم (فقه اللغة وسر العربية) قائلاً: «فاستأذنته في الخروج إلى ضيعة لي متناهية الاختلال بعيدة المزار، والجمع فيها بين الخلوة بالتأليف، وبين الاستعمار...»(١).

ثم نقرأ في تصدير مقدمة ابن خلدون ما يأتي: «الحمد لله الذي له العزة والجبروت، وبيده الملك والملكوت، وله الأسماء الحسنى والنعوت، العالم فلا يعزب عنه ما تظهره النجوى أو يخفيه السكوت، القادر فلا يعجزه شيء في السماوات والأرض ولا يفوت، أنشأنا من الأرض نسماً واستعمرنا فيها

---

(١) فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور إسماعيل الثعالبي النيسابوري ص١٠، دار الكتب العلمية، بيروت.

أجيالاً وأمماً. . .»[1].

وهي كلها دلالات تنصرف فيها لفظة الاستعمار إلى البناء والعمارة والتشييد، بخلاف الدلالة الإيحائية التي اكتسبها اصطلاح الاستعمار، الذي أصبح يعني الاحتلال والقهر ونهب خيرات الأمم المستضعفة، ولا شك أن أفعال المستعمرين (بكسر الميم) الوحشية هي التي نزلت باللفظة وهبطت بها إلى دركة الخسة التي أضاعت ما كانت توسم به اللفظة من تشييد وبناء وعمران.

المستهترون: «المستهترون: المولعون بالذكر والتسبيح. وجاء في حديث آخر: «**هم الذين استهتروا بذكر الله**»؛ أي: أولعوا به. يقال: استهتر بأمر كذا؛ أي: أولع به، لا يتحدث بغيره ولا يفعل غيره. . .»[2].

ثم تغيرت دلالة اللفظة وديمومتها الراقية المحببة، إلى دلالة النقيض التي تشير إلى الكلام الساقط مع الوقوع في الباطل، كما يتضح ذلك من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «**اللهم إني أعوذ بك أن أكون من المستهترين**».

---

(١) المقدمة، عبد الرحمٰن بن محمد بن خلدون، تحقيق: د. درويش الحويدي ص٩، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ط ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٢) لسان العرب (٥/ ٢٤٩).

يقال: استهتر فلان، فهو مستهتر إذا كان كثير الأباطيل، والهتر: الباطل. قال ابن الأثير: «أي المبطلين في القول والمسقطين في الكلام». وقيل: «الذين لا يبالون ما قيل لهم وما شتموا به»[1].

الصهيونية: نسبة إلى جبل صهيون الذي يقع قرب بلدة (يبوس) بالقدس الشريف، وهي منطقة وعرة المسالك. وقد استولى عليه داود ﷺ، فاتخذه قاعدة لحكمه، ثم ضخَّمَ الإسرائيليون الحدث، وخلقوا حوله الأساطير، وجعلوه شعاراً لهم، واسماً لحركتهم السياسية والدينية.

هذه هي الدلالة الذاتية للفظة، أما دلالتها الإيحائية التي ولَّدتها الاستعمالات اللغوية، فهي لا تتمتع لدى الإنسان العربي بسوى الإرهاب الصهيوني والتشدد اليهودي المقيت، والقتل العنجهي الفظ.

الإرهاب: تُعد هذه اللفظة من الاصطلاحات الرائجة على ألسنة الدوائر الغربية، في الصحف والإذاعات والتصريحات. وهي كلمة لم تتجاوز دلالتها الحافة معنى الخوف والفزع.

جاء في اللسان: «الرُهب، والرهبى، والرَهَبُوت، والرهبوتي، ورجل رهبوت. يقال: رهبوت خير من رحموت؛

---

(١) المصدر نفسه (٥/ ٢٥٠).

أي: لأن ترهب خير من أن ترحم... وأرهبه ورهبه، واسترهبه: أخافه وفزعه»[1].

والإرهابيون: «وصف يطلق على الذين يسلكون سبيل العنف والإرهاب، لتحقيق أهدافهم السياسية»[2].

وقد سعت الإدارة الأمريكية إلى إلصاق هذه الصفة بالمجتمعات الإسلامية، رغبة منها في تغيير دلالات اصطلاحي المقاومة والاستشهاد، وإفراغهما من الحمولة الدينية، التي توجب على كل مسلم الجهاد في سبيل تحرير الأماكن الإسلامية المغتصبة من لدن الصهاينة الإرهابيين.

الإرهاب إذن ـ كما تزعم أمريكا والعالم الغربي بصفة عامة ـ توأم الشر، وناصر الخوف، وباعث الذعر، ومزهق الأرواح، ومحيي الفتنة، ومعكر صفاء المدنية الغربية، ومهدد الأمن العالمي الجديد، ولذلك سعت قيم الأمركة إلى النزول بدلالة اللفظة، ولا سيما بعد أن سعت مجموعة من الأوباش والشطارين الضالين تفجير أنفسهم، خدمة منهم لأغراض دنيئة، لا تمت إلى الإسلام بأي صلة.

---

(١) العولمة والممانعة، دراسات في المسألة الثقافية، عبد الإله بلقزيز، تقديم: محمد مصطفى القباج ص١٥ و١٦. سلسلة المعرفة للجميع، عدد ٤، منشورات رمسيس مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

(٢) لسان العرب (١/ ٤٣٦).

هذه نظرة الطائر إلى بعض الألفاظ والاصطلاحات المنحطة الدلالة في عربية اليوم، أو التي أرادت المؤسسات الصهيونية ـ إذا استطاعت إلى ذلك سبيلاً ـ أن تحط من دلالتها وتنزل بها إلى الدرك الأسفل في التداول العربي اليومي. وقد غزوت من الإشارة إلى بعضها أن أؤكد أن للغة قانوناً يرتبط بحياة الأمة، وما تعرفه من تغيرات في الذوق، والقيم، والفنون، والعلوم، والسياسة، والاقتصاد.

فهل تنبهت الأمة العربية لمرامي هذه السياسة اللغوية الجارفة؟ وهل نحتاج، بعد هذه الجولات، أن نبحث عن مكان للغة العربية تحت مظلة التطور اللغوي؟ ألم تكن العربية موصولة ـ على الدوام ـ بقيم المجال التداولي العربي الذي لا يُخِلُّ بشرائط الفصاحة؟ ألم تظهر أنظمتها الصرفية والصوتية والنحوية والمعجمية قابلية للاتساع واحتواء كثير من الاستعمالات، التي تكسر النظام المثالي للقاعدة اللغوية، بإرجاعها إلى بعض القواعد الفرعية، وتعليل عدولها عن الأصل بضروب من التجوزات السائغة التي تبرأ من اللحن والفساد؟

إن الاستقراء المجدي للكلام الفصيح، يثبت أن كثيراً من الألفاظ العربية الحديثة التي لم ترد في المعجمات القديمة، أو جاءت وفق معان خاصة ليست هي المراد اليوم في الاستعمالات الجديدة، هي من صميم العربية الصحيحة التي لا مشاحة فيها، بل إن أغلبها مستعمل في شواهد عربية فصيحة

سواء داخل حزام فترة الاستشهاد والاحتجاج، أو خارجه بقليل.

انظر مثلاً إلى الألفاظ الآتية التي جعلها كثرة جريانها على ألسنة متكلمي عربية اليوم، تتطور وتختص بمعان جديدة لا ينبغي لأحد أن ينسبها إلى تعكير صفاء العربية.

من ذلك لفظة: المحاضرة، التي كانت تعني: «المجادلة، وهو أن يغالبك على حقك فيغلبك عليه ويذهب به. قال الليث: المحاضرة أن يحاضرك إنسان بحقك فيذهب به مغالبة أو مكابرة. وحاضرته: جاثيته عند السلطان، وهو كالمغالبة والمكاثرة»[1]، ثم أصبح اللفظ بمعنى المحادثة في «موضوع يلقيه المحاضر؛ أي: الخطيب، في محضر من الناس»[2]، ومنه قيل: فلان حسن المحاضرة، وأحسب أنها تطورت عن معنى قولهم: فلان حَضْرٌ؛ أي: صاحب بيان.

وهو تطور يمكن أن ندرجه في الاتساع في الاستعمال بلطف الإفادة من الأصل، شأنه في ذلك شأن لفظة: سداد (بفتح وكسر السين) التي كانت تعني الغلق، غير أن استعمالات المحدثين صرفت اللفظة في اتجاه آخر حين قولهم: سدَّد فلان الديون القديمة؛ أي: دفع ثمنها، حيث أضيف إلى اللفظة

(١) المعجم الوسيط (١/ ٣٧٦).

(٢) لسان العرب (٤/ ٢٠٠).

من تجارب المستعملين ما جعلها تكتسب هذه الدلالة الجديدة التي دخلت في حظيرة العربية.

وهو مسلك مقبول من المفيد لعربيتنا أن تنتفع به، وتشيع استعماله استجابة للزيادة في دلالة الألفاظ التي جرت بها أقلام المِفنِّين اتباعاً لميولات المجتمع اللغوي، التي لا تبتعد عن طواعية اللغة وقابليتها للتجديد الذي يساير إيقاع التطورات الحالية، من دون السقوط في شرك النسخ والمسخ والسلخ التي تتقفى آثار طبائع اللغات الأخرى وفصائلها التكاثرية، سواء صادف ذلك مصلحة ملزمة أو لم يصادفها.

ومن وسائل التوسع اللغوي في العربية: الاشتقاق من أسماء الزمان والمكان، حيث أصبح من الشائع سماع التعابير الآتية: أَلْيَلَ فلان: إذا دخل في الليل، (أمسى) (أصبح) (شرق) (غرب) (تمدن) (أشأم) (أعرق) (أنْجَد) (أتْهَم)، مثل قول الممزق العبدي:

فإن تتهموا أنْجدْ خلافاً عليكم وإن تعمنوا مستحقبي الحرب أعرق

وقد مال المغاربة إلى استغلال ظاهرة الألوان للتعبير عن بعض المسميات العصرية مثل: البطاقة الرمادية التي تعني امتلاك سيارة، والبطاقة البيضاء التي تسمح لصاحبها بعبور الحواجز من دون تفتيش، واللوحة الخضراء التي تعني أن السيارة عسكرية، وهي كلها ارتجالات لا تبتعد كثيراً عن الشعراء

القدامى في إشارتهم الموفقة لسد الحاجة في التعبير عن المراد، في مثل قولهم: ماء الملامة، وأنياب الأغوال، ورؤوس الشياطين، وهلم جرّاً من الوسائل التي تفضي بألفاظ اللغة إلى لائحة المغانم، فماذا إذن عن لائحة المغارم الطويلة الذيل، القليلة النيل، والتي ترقد في بطون أمَّات المعجمات لتضاؤل الحاجة إليها أحياناً، ومجافاتها للذوق العام الميال إلى تقليل الكلِم الثقيل، وتكثير الخفيف، رغبة في دفع الكلفة والمشقة في النطق، كما يتجلى في الألفاظ المهجورة الآتية التي تعني: القوي الضخم الثقيل، سواء كان ذلك من الحيوان أو من الإنسان وهي: الجُرافش والجرافس والجُرامض والجُرشع والجِرواض والجُراهم والقَسْجب والشَّرمح والشُّرواض والشُّرابث والسِّرداح وهلمَّ على ذلك جرّاً وسحباً؟!

❒ ❒ ❒

الفَصْلُ الرَّابِعُ

أسباب بلى
الألفاظ في اللغة العربية الفصحى

أسباب بلى الألفاظ في اللغة العربية الفصحى

أولاً: وطاءة

لا براح أن الحُذَّاق الأثبَات، وجلَّتهم المُشْبلين البصراء بأفانين اللغة العربية الفصحى، يثبتون أن بلى الألفاظ موضوع طويل الذَّيْل، قليل النيْل، لا يصفه إطناب، ولا يبلغ كنهه إسهاب، ولا يدرك غوره إلا من أعرق في البحث في يَمِّ العربية الذي لا ينكش، وكان سَبْطاً ألْمَعِيّاً مُرتاضاً عارفاً بالكنوز الدفينة، والدرر الثمينة المُسْتفْرَهة التي تنتظر من يزيل عنها الأصداف التي تمنع من أن ينتفع بها المجتمع اللغوي، فتستأنف العودة إلى حظيرة الفصحى، وقد اكتست مطارف رائقة تسر الناظرين بعد أن عاد لها شبابها، ولا سيما بالنسبة إلى الموضوعات التي يلاحظ فيها الغنى والفيض الزائدان عن الحاجة إلى درجة التخمة، مثل موضوعات: الإبل، والخيل، والصحراء، واللبن، والماء، والنبات، والأشجار، والسيف، والبحر، والنجوم، وهلم جرّاً.

فمتى إذن تنهض الهمم لنفض الغبار عن هذا الكمِّ الهائل

من الكنوز الدفينة التي نتوفر عليها في المعجمات والرسائل اللغوية الخاصة لتصحيح نظرة فئة الأغتام الذين يطوون كشحهم عن العربية الفصحى؛ لأنها ـ في نظرهم ـ لغة بالية شائخة مقحوطة ومنزوفة الطاقة، ولا تمتلك المقومات الضرورية لكي تصبح لغة العلم والتقنية والحياة، ولذلك فهي في حلبة السباق الحضاري والعولمة، تأتي مثل الخيل المُفسْكِلة المتأخرة، إذا ما قورنت باللغات المتقدمة تقنياً، ولذلك يجب أن تقص أطرافها، وتهْجر كثير من ألفاظها وتعابيرها الدارسة.

ثانياً: تحديد مفهوم البلى

البلى ـ كما تشير أُمَّات المعجمات ـ هو: الدثور والفناء والدَّرَسُ والسَّمل، يقال: بلي الشيء يبلى بِلىً وبِلاءً إذا أصابه النهج والتلاشي والاضمحلال، قال العجاج:

والمرءُ يبليه بِلاء السِّربال   مَرُّ الليالي وانتقال الأحوالْ

البلى إذن نوع من التعب والإنهاك الذي يصيب الكلمات في أثناء رحلاتها في معترك الحياة. إنه مرادف للرقود والدَّرَس والفناء الذي يظهر أن لكل لفظة أجلاً مسمى، وأن الألفاظ مثلها مثل الكائنات الحية تعتريها الصحة والاعتلال ثم الفناء. ومع ذلك فإن ترك أي لفظة من كلمات اللغة في زوايا النسيان ـ بدعوى بلاها ـ ليس سوى تضييق وحَجْر على الفكر وعلى الحقيقة والمعنى الدقيق الذي تعبِّر عنه، لذلك يجب

النظر إلى البلى اللغوي نظرة ثاقبة تخرج العربية الفصحى من معتركه بأقل خسارة ممكنة، في إطار الكيد والمماطلة والاقتتال بين الكلمات، حيث يسلط الصراع بينها سيفه البتار لإسكات أصوات الكلمات التي لم يعد لها حضور فعلي في الحياة.

ثالثاً: الألفاظ البالية وكيفية التعامل معها

إن التطور في اللغة لا ينبغي أن ينصرف بالذهن إلى البحث عن كيفية تكثير مفرداتها فقط، بل إن التطور يحدث في أحايين كثيرة نتيجة للصراع بين المندثر الزائل، وبين الكلمة الجديدة التي لا يكتمل لها وجود مستقر، إلا بعد أن تقوم بعملية إبادة لألفاظ أُخر تعوم في محيطها، وبهذا المعنى يصبح الصراع بين الكلمات سيفاً بتاراً يسلط مضاءه لإسكات صوت حشد من الكلمات التي تنتفي الحاجة إليها في عصر من الأعصر، وقد تتجدد الحاجة إلى بعض الألفاظ المهجورة بعد أن أثبتت قدرتها على المنافسة في سوق التداول القائمة على أساس تحقيق المآرب التواصلية، مضحية بكل ما هو نافر، للتعبير عن أوجه الحياة المختلفة. وفي إطار هذه الولادة الجديدة تنضم حشود من الكلمات المعجمية إلى لائحة الضحايا التي أهملها الاستعمال، إما نتيجة انتفاء الحاجة إليها مثل: الدِمْنة والنؤي والأنقع والرتَمة والأُثْفية والهودج والحِدْج والمَلة والأواري:

(محبس الدابة)، والصؤاب: بيض القمل، واليَنَم والحُرْبُث: نوع من البقل، قال المرقش[1]:

باتَ بِغَيْبٍ مُعشِبٍ نبتُه   مُختلطٍ حُرْبُثه باليَنَمْ

وإما لثقله وبُعده عن السلاسة رغبة منهم في إبعاد جريرة التكلف عن كلامهم، مثل الألفاظ المتكلفة الغريبة الآتية: العُبْسور والعسبور والعيسجور والجاشرية: الناقة الصلبة الشديدة السريعة. والبُعْقوط والبُلقوط: القصير. والقِبْعَض الذي شرحه المبرد بالقطن مشيراً إلى قول أحد الشعراء:

كأن سنامها حشى القِبْعضا

والصعْفصة: اللحم الذي يطبخ بالخل. والعَثَوْثَل: الفدم الغبي. والظروري: الكيِّس العاقل. والمُطْرَهِم: الشاب المعتدل التام.

بل إن أبا الأسود الدؤلي لم يستطع معرفة معنى لفظة: بظيت في قول الغلام الأعرابي عندما سأله: «ما فعل أبوك؟ قال: أخذته الحمى فطبخته طبخاً، وفتخته فتخاً، وفضخته فضخاً، فتركته فرخاً! قال أبو الأسود: فما فعلت امرأته التي كانت تُشاره، وتُجاره، وتُهاره، وتُزاره؟ قال: طلَّقها، وتزوجت غيره، فرضيت، وحظيت، وبظيت! قال أبو الأسود: قد علمنا

(١) شرح المفضليات، للتبريزي، تحقيق: علي محمد البجاوي، القسم الثاني ص٨٤٠، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة.

رضيت وحظيت، فما بظيت؟ قال: حرف من الغريب لم يبلغك!...[1].

وعن أبي المياس قال: «قال الأصمعي: قيل لذي الرمة من أين عرفت الميم... فقال: والله ما عرفتُ الميم، إلا أني قدمت من البادية إلى الريف، فرأيت الصبيان وهم يجوزون بالفِجْرِم في الأُوَق، فوقفت حيالهم أنظر إليهم، فقال غلام من الغلمة: قد أزفتم هذه الأوقة، فجعلتموها كالميم، فقام غلام من الغلمة فوضع فمه في الأوقة فَنَجْنَجَه فأَفْهَقها، فعلمتُ أن الميم شيء ضيق فشبهت عين ناقتي به، وقد اسلهمت وأعيت.

قال أبو المياس: الفِجرم: الجوز... والأوقة: الحفرة، وقوله: أزفتم؛ أي: ضيقتم، ونجنجه: حركه، وأفهقها: ملأها... واسلهمت: تغيرت، والمسلهم: الضامر المتغير»[2].

هذا غيض من فيض ما تفوه به الأعراب الفصحاء،

---

(١) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، تحقيق وشرح: حسن السندوبي (١/ ٣٨٨)، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ومقال: (فصحاء الأعراب) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، عبد القادر المغربي، المجلد التاسع، ص١٤١ و١٤٢، بتاريخ ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م.

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، شرح وتعليق: محمد جاد المولى بك ومحمد أبو الفضل إبراهيم ثم علي محمد البجاوي (٢/ ٣٥٠)، ط ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م المكتبة العصرية، صيدا.

قصدت من عرض بعض نماذجه للتدليل على أن الألفاظ المهجورة الساكنة في بطون الرسائل اللغوية الخاصة، لا تتداولها الألسنة تنتهي نهاية الماء الراكد الذي يحتقن ويأجن نتيجة تعطيل الأيدي عن امتياح مشاربه، لكنها لا يفضي بها خمولها إلى الموت الأبدي؛ لأنها قد يعرض لها حادث فيتحرك بها يراع أحد المخضربين المفنين، ثم تجري على الألسنة في أجود معرض، وتؤوب لها الفتوة غضة نضرة، ولهذا فإن نسبة الموت إلى كلمات اللغة «لا يعد بحال من الأحوال وصفاً مناسباً لإهمال الكلمة أو هجرها، إذ أن اختفاء الكلمة أو المعنى لا يكون نهائيّاً أو تامّاً في حالات كثيرة»[1].

وليس من النَّصَفِ أن ندَّعي أن لفظةً معينةً مماتةً؛ لأن هناك احتمالات عديدة لاستيقاظها من هجعتها، وعودتها لتمارس دورها في الحياة، عندما تتاح لها الفرصة على يد مفن بارع، أو مجمع لغوي، أو عالم متنطس، يعيدون لها نضارتها وإشعاعها الذي كانت تتمتع به، وقد يزيدون على تلك النضارة فتنة وسحراً حلالاً يغني عن إلقاء العصا والحبال.

وإذا كانت اللغة، أي لغة «لم تبلغ حداً من التقديس يصح أن تهدر معه حرية الأمم في اختيار الكلمات المناسبة، وإماتة

(١) دور الكلمة في اللغة ستيفن أولمان ترجمة وتقديم وتعليق: د .كمال محمد بشر ص٢١٠، ط ١٩٩٢م، مكتبة الشباب.

غير المناسبة، وتكميل ما نقص، وخلق ما ليس بموجود»[1]، فإنه لا ينبغي أن يعزب عن ذهننا ما تتمتع به العربية من فرادة واستثناء، ولا سيما عندما ينصرف الذهن إلى لغة القرآن الكريم التي حفظها الله من فوق سبع سماوات، حيث إن ألفاظ القرآن لا تبلى ولا تخلق، وإنما هي عرصات تدعو الناظرين إلى تشمم ما فاح من أزاهيرها العطرة، لغة تأسر وتفتن بسحرها وتجليات تشكلاتها، كلما أحسسنا بقرب اختفاء التعابير الآسرة، أعقبها الله ﷻ بأسراب أشدَّ أسراً، لغة كأنها في جمال تناسقها، وبراعة سبكها، وحسن تأليفها تحاكي ريش الطاووس حلية وجمالاً، فهي ألفاظ مفصلة تفصيل العقد الذي لا يُظهر فتنته إلا واسطته، التي تأخذ من الأسر والبراعة أخذاً عجيباً، وتلك هي المزية العلياء، التي تمتاز بها لغة القرآن الكريم، اللغة الجزلة، الأنيقة، الرشيقة، الرائقة، العبقة، الفاتنة، الموحية، العذبة، المزمجرة، الحريصة على امتلاك السحر اللغوي اللافت، المرتكز إلى براعة المزج بين الأزاهير الطيبة التي يعبق أريجها ليكون مأدبة تغذي المشاعر الإنسانية المختلفة.

لغة هذا بعض توصيفها، لا يمكن أن يجد البلى منفذاً إلى رياضها العطرة، فهي متجددة تجدد المَلوَان، نظراً لتكفل الباري

---

(١) ضحى الإسلام، أحمد أمين (٢/ ٢٦٣)، ط٨، ١٩٧٤م.

جل شأنه بحفظها في سورة الحجر، آية رقم ٩ في قوله المبين: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ولذلك فإن ألفاظ: (المِقْلاد، والسري، ثم الضِّغث) على سبيل المثال لا يمكن أن يصيبها البلى والدَّرَس، رغم هجر المجتمع اللغوي الكسول لها، حيث استبدل بها كلمات: (المفتاح، والجدول، ثم الباقة)، قال الشاعر:

سهل الخليقة ماجدٌ ذو نائل مثل السَّريِّ تمده الأنهار

مما سبق يتوضح لكل ذي نُهية أن البِلَى المقصود بالنسبة إلى اللغة العربية، يطول شنع اللغات التي تحدث بها الأعراب في أسواقهم ومنتدياتهم، ومناظراتهم، كما يمسُّ كل ما تفوه به الأعراب من كلم غريب في مجالسهم، وفي أثناء إقامتهم أو ظعنهم، سواء ورد ذلك في أشعارهم، أو في غرائبهم وقصصهم، ومباهاتهم بحفظ الغريب النادر، حتى ادعى بعضهم أنه يحفظ سبعين اسماً للحجر، وخمسمائة للأسد، وثمانين للعسل، وألف لفظ للناقة، وأربعة آلاف للداهية وهلم على ذلك جرّاً وسحباً.

رابعاً: أسباب بلى الألفاظ

١ ـ الترادف:

على الرغم من أن الترادف بمعناه الدقيق «نادر الوقوع إلى درجة كبيرة، فهو نوع من الكماليات التي لا تستطيع اللغة أن

تجود بها في سهولة ويسر»[1]؛ لأن أغلب الكلمات التي قد تبدو مترادفات، ليست في الحقيقة سوى أشباه مترادفات، كلما تم توظيفها في سياق معين، كلما أصرَّت على إضافة جرثومة من المعنى إلى ذلك السياق.

لهذا فإن الاستعمال غير الدقيق لتلك الألفاظ في عربية اليوم، كثيراً ما يفضي بالمتكلمين إلى الوقوع في اللبس الذي ينجم عنه فقدان الحس اللغوي السليم، ومن ذلك الألفاظ المتقاربة الآتية التي يظن الناطقون بها أنها من المترادف الذي يمكن تعويض بعضها ببعض من دون أن يتغير المعنى، مع أن هناك فرقٌ واضحٌ بينها قد يصل إلى الضدية مثل: المائدة: الخْوان. والكأس: القدح، الكوب. والفيء: الظل. والغلط: الغلت. والبعض: النيف. والبرهة: اللحظة. وخمدت: همدت. وأترب: ترب. والجلل: الجليل. والسجل: الدلو. والشيب: الشوب. والبين: البون. والزق: الوطب، النحي، العُكَّة، الشوكة، القربة، الحميت. والوليمة: النقيعة، الوكيرة، الخُرس، المأدبة، الوضيمة، المدعاة، الشنداخي. ونفش: همل. وأسقيته: سقيته. وأمَّات: أمهات. والشمس: الغزالة، الجونة. والأيدي: الأيادي. والوكر: الوكن، العش. والسنة: العام. وغيرها مما يرهق تتبعه ويتعب.

(١) دور الكلمة في اللغة ص١٠٩.

غير أن ميل المجتمع إلى هجر ما يعتقد أنه ليس سوى مرادف غريب لألفاظ متداولة مشهورة، ونزوعه نحو سهولة الاتصال أفضيا إلى بلى كثير من الألفاظ الزائدة فوق الحاجة التواصلية، التي لا تضيف شيئاً جديداً إلى ثوب العربية الفضفاض، ولذلك تم الحرص على قص الأطراف الزائدة عن الحاجة كما يتوضح من أشباه المترادفات الآتية بالنسبة لأسماء الداهية التي يبدو عليها التكلف جليّاً: العنقفير، والخنفقيق، والخنديس، والعوطب، والعوبط، والحولق، والحيلق، والجيلق، والعُلَق، والفُلَق، والتُّوَلة، والدولة، والترخين، والبرحين، والذَّرْبين، والدُّهَيْماء، وأم اللهيم، وأم خَنُور، وخنور، والخناشير، والخناثير، والدقاقير، وتَغْلم، والأقورين، حتى قيل: إن الإحاطة بأسماء الدواهي من الدواهي، كما نعتوا البحر بأسماء لم يبق منها التداول اليومي سوى اسمي البحر واليم، أما أسماء: خُضَارة والدأماء ونوفل وخضرم والرَّجَّاف فقد أصابها البلى، قال الشاعر:

ويكللون جفانهم بِسَديفهم حتى تغيب الشمس في الرَّجَّافِ

قال أبو علي القالي: الكنس هو الكسح يقال: «كسحتُ البيت وقممته وخممته وسفرته كلها بمعنى واحد، والمِقَمة والمِخَمة والمِكْسحة والمِسْفرة: كلها المكنسة، والخُمامة والسُّباطة والكُساحة والقُمامة والكِبَا... كل ما كنسته من البيت

فألقيته من قماش وتراب»[١].

كما أوردوا للدهر مرادفات عديدة منها: الأُبْض والحَرْس والمُسْند والأَزْلَم... كما قالوا عن شدة الحر: الصيهب والصيخود والمُسْمَقِر والوديقة والوغرة والمعمعان والأجَّة والسُّخْن والساخن والسخنان والومد والتأجم والصقرة والعكة والابتجاج والرمضاء والاحتدام...[٢].

هذه جملة من الغريب النادر الشارد الغامض المهجور في عربية اليوم، الذي كان القدامى يصونونه ويودِعونه أجود صوان، ويقصدون به من يقدِّر نفاسته، يجوبون متون الدشْت والقفار، ويركبون المفازات، ويتجشمون عرق القربة، ويكابدون الغمرات آملين أن يضيفوا إلى ثوب العربية القشيب مطارف، إذا بدت لنا اليوم مثل رقع بالية غريبة عن روح العصر، فإنها بالنسبة إليهم كانت مطارف رائقة، ولذلك وجدنا الأصمعي يفتخر في حضرة هارون الرشيد بأنه يحفظ للحجر سبعين اسماً، وهي كلها في عداد الألفاظ المهجورة البالية التي تنتظر ـ شأنها شأن باقي حشود المترادفات الغريبة عن ألسنتنا اليوم ـ من ينتشلها

---

(١) الأمالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي (١/ ١٣٥)، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٢) فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور إسماعيل الثعالبي ص٣٥١ ـ ٣٥٢، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

من رقدتها الشتوية العميقة، أو على الأقل بعضها، التي تدعو الحاجة إليها، لضمان صياغة اصطلاحاتٍ تتنكب طريقة الترجمة من اللغات الأجنبية، مثل الاصطلاحات الآتية التي يجب إذاعتها:

البُرْطُلة: بدل الشمسية التي تشم فيها رائحة اللفظ الأجنبي (Parasol)، والمُسَناة: للحاجز يُبنى للسيل ليمسك الماء، والهُبَارية: لما يسقط من شعر الرأس إذا مُشط، بدل قول: القشرة المغرقة في العمومية، والمجاسد: لكل ما يلبس من ثياب تلي الجسد، والمِقْطَرة: للمجمرة يوضع فيها الكباء الذي يتبخر به، والأُبْنَة: للعقدة التي تعيب العود، والوبيل: للحزمة من الحطب، والأثل أو التأثيل: للبحث عن أصول الكلمات، والنطار: للفزاعة، والمِطْمر: للخيط الذي يقدر به البناء، والمِقْوم: للخشبة التي يمسكها الحراث التقليدي، والحُلَّة: للثوبين يرتديهما الناس كثيراً في هذا العصر ويسمونهما البدلة، وهو اسم مجانب للصواب؛ لأن البدلة بإعجام الذال وإهمالها، هي الشيء المبتذل، والكُبَاد: لوجع الكبد؛ قال النبي ﷺ: «**الكباد من العَب**»، والعبُّ: شدة جرع الماء كما تجرع الدواب[1].

---

(١) أدب الكاتب، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق وضبط وشرح: محمد محيي الدين عبد الحميد ص١١٩، ط٤، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م، دار الجيل، بيروت.

والبُسْلة: لأجرة الراقي، والحَفَّة: للخشبة التي يلف عليها الحائك الثوب، والأرينة: غسول الرأس، وهو نبات يشبه الخِطمي، والسبيخة: القطعة من القطن تعرض ليوضع فيها الدواء، ثم توضع فوق الجرح، والخبيبة: خرقة طويلة تخرج من الثوب فتَعْصب بها الجرح (الضماد)، والإثب: بُرْد يشق فتلقيه المرأة في عنقها من غير كمين ولا جيب، والعركي: صائد السمك، وهلم جرّاً مما يطول تعداده ويرهق.

٢ ـ ألفاظ الأضداد والمشترك اللفظي:

الحق أن ظاهرتي الاشتراك اللفظي والأضداد، تعدَّان بمثابة داء لغوي، ومظهر ضعف في كل لغات الدنيا، نظراً لما ينجم عنهما من مخاطر كثيرة تفضي إلى الالتباس، الذي تحتاج فيه اللفظة (الضد أو المشتركة) إلى السياق لتحديد دلالتها المقصودة.

ونظراً لأن العقل يأبى الإذعان لوجود لفظ واحد يدل على معنيين مختلفين، فإن أغلب المحققين من علماء العربية قدامى ومحدثين ينكرونها ويدفعونها، ويرجعونها إما إلى اختلاف التعبير، أو إلى اختلاف اللغة لدى القبائل العربية «كالسدفة فهي في لغة هوزان بمعنى النور. . . وهي في لغة سائر العرب بمعنى الظلمة»[١]،

(١) المصدر نفسه (انظر: الحاشية) ص١٧٧.

أو قُل إن دلالتها الحقيقية هي الظلمة المختلطة بنور، سواء كان ذلك في الصباح أو في المساء.

انطلاقاً من هذه الصعوبة في تحديد الدلالة المقصودة، يميل التداول اللغوي اليوم إلى إبادة أحد المعاني، في إطار معركة الألفاظ، والإبقاء على معنى واحد، تسهيلاً للاتصال والتواصل، حيث إن استعمال اللفظة المشتركة أو اللفظة الضد مخصوصة بمعنى محدد وواحد، سرعان ما يفضي إلى بلى اللفظ الثاني المشترك أو الضد، وقد ينتهي بهما الصراع إلى الاندثار والزوال، كما هو الشأن بالنسبة إلى لفظ (وراء) التي كانت تعني: قدام وخلف، لكن المجتمع اللغوي أباد معنى قدام، وأبقى على معنى (خلف)، إذ لولا نصوص الشعر القديم، والقرآن الكريم، لما استطعنا أن نقف على استعمال (وراء) بمعنى (قدام)، قال مرقش الأكبر:

ليس على طول الحياة نَدَمْ ومن وراء المرء ما يعلم

حيث إن (وراء) هنا بمعنى (أمام)[1].

أما الشاهد في القرآن الكريم فينصرف إلى قوله تعالى من سورة الكهف، آية ٧٩ على لسان الرجل الصالح، الخضر الذي لم يذعن سيدنا موسى عليه السلام لشروط صحبته فقرر الافتراق

(١) شرح المفضليات للتبريزي، القسم الثاني، ص٨٧٠.

معه بعد أن أنبأه بتأويل ما لم يستطع عليه صبراً في قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾.

ولعل ما عرفه لفظ (وراء)، هو نفس ما طرأ على لفظ (النجم) الذي يعد من المشترك اللفظي الذي يعني: النجم المعروف في السماء تارة، وتارة أخرى النبات الذي لا ساق له. وقد احتفظ كل من القرآن الكريم والشعر العربي على المعنيين، حيث أورد القرآن اللفظة تارة بمعنى الجرم السماوي المعروف في قوله تعالى من سورة النجم، آية رقم ١: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ وتارة أخرى بمعنى النبات الذي لا ساق له في سورة الرحمٰن، آية رقم ٦ في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾، وفي الشعر العربي نقرأ من بحر الوافر قول أحدهم الذي جمع بين المعنيين في بيت واحد:

أُراعي النجْمَ في سيري إليكم ويرعاه من البَيْدا جَوادي

غير أن اتجاه التداول اللغوي ماض إلى هجر معنى النبات الذي لا ساق له، والإبقاء على معنى الجرم السماوي للفظ فقط؛ لأنه هو المشهور المتداول.

كما أن لفظ «الزمهرير» يعد من ألفاظ المشترك اللفظي التي تحتاج إلى قرينة السياق لمعرفة دلالتها في القرآن الكريم بالنسبة إلى الآية القرآنية الآتية من سورة «الإنسان»:

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا...﴾ [الإنسان: ١٣]، إذ المراد بلفظة «الزمهرير» هنا ليس البرد القارس، وإنما المراد هو «القمر» لأنه ليس في الجنة ليل ولا نهار، ومن ثمة فإن أصحاب الجنة لا يرون فيها شمساً ولا قمراً.

وهكذا يبدو أن المجتمع اللغوي هجر دلالة القمر، وأبقى فقط على دلالة البرد القارس بالنسبة إلى لفظة «الزمهرير».

وقُل الشيء نفسه بالنسبة إلى ألفاظ الأضداد الآتية التي هجر المجتمع اللغوي أحد معانيها، وأبقى على الآخر مثل:

الخنذيذ: الذي هجر منه معنى الخصيان من الخيل، وأبقي على معنى الفحل الماهر.

أسررت الشيء: الذي هجر منه معنى الإعلان، وأبقي على معنى الإخفاء.

أخفيت الشيء: الذي هجر منه معنى أظهرته، وأبقي على معنى كتمته.

شريت البضاعة: الذي هجر منه معنى بعت، وأبقي على معنى اشتريت.

الناهل: الذي هجر منه معنى العطشان، وأبقي على معنى الذي شرب حتى روى.

الجون: الذي هجر منه معنى البياض، وأبقي على معنى السواد.

الصارخ: الذي هجر منه معنى المغيث، وأبقي على معنى المستغيث.

سوى الشخص: الذي هجر منه معنى الشخص بذاته، وأبقي على معنى الشخص غيره.

ولَّى: الذي بلي منه معنى أقبل، وأبقي على معنى أدبر.

القشيب: الذي بلي منه معنى الخلق والبالي، وأبقي على الجديد المزركش.

كما حل البلى بكثير من ألفاظ الأضداد، فإن ساحة المشترك اللفظي لم تسلم بدورها من قص أطرافها، حيث حرص المتكلمون على هجر أحد المعنيين على هذه الشاكلة:

النوى: حيث هجر منها معنى الدنو، وأبقي على معنى البعد.

الإوز: حيث هجر منها معنى الغليظ في قولهم: دابة إوز؛ أي: موثقة غليظ، وأبقي على معنى الطائر المعروف.

الأرض: حيث هجر منها معنى أسفل قوائم الدابة، كما هجر منها معنى الزكام، وأبقي على معنى الأرض الكوكب الذي نعيش فيه.

الهلال: حيث هجر منها معنى الرحى، كما هجر منها معنى الحديدة يعرقب بها الصيد، وأبقي على معنى الهلال المعروف في السماء.

الغُروب: حيث هجر منها معنى الدلاء العظيمة، كما هجر منها معنى الوهاد المنخفظة، وأبقي على معنى وقت غروب الجونة؛ أي: الشمس، قال الشاعر جامعاً المعاني الثلاثة في الأبيات الآتية:

يا ويحَ قلبي من دواعي الهوى إذْ رحل الجيران عند الغُروب
أتبعتُهم طرْفي وقد أزمعوا ودمعُ عيْني كفَيْض الغُروب
كانوا وفيهم طفْلة حرة تفْتَرُّ عن مِثل أقاحي الغُروب

الغروب في البيت الأول؛ يعني: غروب الجونة، وفي البيت الثاني جمع غرب: وهو الدلْو العظيمة المملوءة، وفي الثالث جمع غرب: وهو الوهاد المنخفظة.

٣ ـ فشو التأدب والنفور من الغريب الوحشي:

كثيراً ما يرفض الاستعمال جملة من الألفاظ، إما لتقارب أصواتها، وما ينجم عن ذلك من تكلف ومشقة على الأعضاء الإصاتية، مثل اجتماع الأصوات الآتية في الكلمة (ستشجز) و(كق) و(قك) و(سص)... وإما لإغراقها في الغريب الوحشي التي لا يدركها إلا المتنطسون الذين شقُّوا كمها وأعرقوا في البحث عنها.

من أجل ذلك سعى المتكلمون، بعد فشو التأدب والتظرف في المجتمع الإسلامي إلى أن «اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله، وعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة اختاروا أحسنها

سمعاً، وألطفها من القلب موقعاً وإلى ما للعرب فيه لغات فاقتصروا على أسلسها وأشرفها، كما رأيتهم يختصرون ألفاظ الطويل، فإنهم وجدوا للعرب فيه نحواً من ستين لفظة، أكثرها بشع شنع؛ كالعشَنَّط والعَنطْنط والعَشَنق والجَسْرب والشوْقَب والسلْهب والشوذب والصاط والطوط والقاق والقوق، فنبذوا جميع ذلك وتركوه، واكتفوا بالطويل لخفته على اللسان وقلة نبو السمع عنه»[1].

وقد أثبت الثقات المخضربون جملة من التغيرات التي طرأت على بعض الألفاظ والتراكيب في العربية، حيث هجرت أسماء الشهور التي كان العرب يتداولونها في جاهليتهم وهي تباعاً: «المؤتمر وهو المحرم، وصفر وهو ناجر، وشهر ربيع الأول وهو خضوان وقالوا: خُوان، وربيع الآخر وهو وَبْصان، وجمادى الأولى: الحنين، وجمادى الآخرة: رُبَّى، ورجب: الأصم، وشعبان: عادل، ورمضان: ناتف، وشوال: وعل، وذو القعدة: وَرْنة، وذو الحجة: بُرَك»[2].

وكما بليت أسماء الشهور السابقة، فقد أصاب البلى

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي بن العزيز الجرجاني، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم ـ علي محمد البجاوي ص١٨، دار القلم، بيروت.

(٢) المزهر (١/ ٢١٩).

أسماء الأيام الجاهلية حيث كانت العرب «في الجاهلية تسمي الأحد الأول والاثنين الأهون، وبعضهم يقول الأهود، والثلاثاء جُباراً، والأربعاء دُباراً، والخميس مؤنساً، والجمعة العَرُوبة، وبعضهم يقول: عروبة فلا يعرفها، والسبت شياراً»[1].

وأحسب أن ألفاظ الداهية التي أشرت إليها تندرج في هذا الغريب المذموم الذي أبلاه الاستعمال كما أبلى كثيراً من شنع اللغات التي كان الأعراب يغربون بها في مجالسهم ومحاوراتهم مثل: العَضْرَفُوط وهو ذكر العظاء، والخلبوت وهو الكذاب الخداع، والهزنبر وهو السيئ الخلق، والشعشعان وهو الطويل الحسن، والفَرنوس من أسماء الأسد، والخُرْنُباش وهو نبت طيب الرائحة، والدِقْرارة وهو التبان، والمألُكة والمألكة والألوك وهي الرسالة.

وقد نص القالي في أماليه أن اشتقاق الملائكة من هذا اللفظ، قال سلم الخاسر[2]:

أبلغ الفتيان مَأْلُكة   أن خير الوُد ما نفعا

كما هجر جمع أشياء على أشاوى وأشاوي وأشايا. وقد «حكى الأصمعي أنه سمع رجلاً من أفصح العرب يقول لخلف

---

(١) نفسه (١/ ٤٥٩).

(٢) كتاب الأمالي (٢/ ١٦٥).

الأحمر: إن عندك الأشاوى»[1]، كما بلي لفظ: الصُفْصُف الذي يعني العصفور. وقُل الشيء نفسه بالنسبة إلى لفظي البعقوط والبلقوط بمعنى القصير، والخُنْدُع والنقاقة والقُرة بالنسبة إلى الضَّفْدع، كما هجر لفظ المِبْرت الذي يعني السكر بلغة اليمن. . . وغيرها من الألفاظ الغريبة التي عفا عنها الزمن وأصبحت الحاجة إليها منتفية، ناهيك عن الصعوبة التي يجدها القارئ في نطقها والتفوه بها، كما هو الشأن بالنسبة إلى المثل العربي الآتي: (أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب)، الذي يشير إلى تقاليد جاهلية عفا عنها الزمن، حيث لم يعد داء الجرب الذي يصيب الناقة يتداوى بحك جلدها بجذع الشجرة، كما لم تعد الأشجار الموسقة المثقلة بالثمار تحتاج إلى تقنية الترجيب، بل أصبح داء الجرب يعالج بالمستحضرات الكيماوية، كما أن النخلة الموسقة تثبت بوسائل خاصة قليلة الكلفة، ولهذا لم يعد هناك معنى لمثل هذه الأمثال البدوية في حياتنا العصرية؛ لأن هناك وسائل عديدة لإعمال العقل والرأي الذي يستفاد من المثل.

٤ ـ إعادة الاقتراض:

الاقتراض ينطوي على كثير من الفساد على اللغة المقترضة (بكسر الراء)؛ لأنه عامل مؤشر على ضعف اللغة المستدخلة للفظة المقترضة (بفتح الراء)، والاقتراض اللغوي من الأمم

---

(١) المزهر (٢/ ٢٢٦).

المتفوقة، يستدعي الفكر الثاقب الذي يدرك الغاية من الاقتراض، أملاً في تحقيق الدمج والتكيف الملائمين للفظة المقترضة (بفتح الراء) مع نظام اللغة المستقبِلة.

أما حينما يتعلق الأمر بإعادة الاقتراض، فإن المصلحة اللغوية تفرض وضع الهناء مواضع النقب، مع الفوز بقدح القصل، وإلا كانت عملية إعادة الاقتراض كالممهورة إحدى خَدَمَتيْها، أو مثل جالبِ التمر إلى هَجَر، ذلك أن هناك كثيراً من الألفاظ العربية التي اقترضتها اللغات الأجنبية، لكنها ـ في ما عنَّ لي ـ أحسنت مضغها، فتحولت إلى كيانها، وصبغتها بصبغتها النطقية، ثم قمنا نحن ـ العرب ـ بمسرحة التجربة من دون أن نحسن المضغ والابتلاع، فانقلب الغذاء الذي يرجى منه إنماء شجرة اللغة، إلى سُمٍّ قاتلٍ أصاب لغتنا في المفصل.

وآية ذلك لفظة (الغَوْل) التي هجرناها رغم أن قرآننا الكريم نطق بها في سورة الصافات حين إشارته إلى شراب أهل الجنة، آيات رقم ٤٥ و٤٦ و٤٧ حيث يقول تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾. إذ إن اللغات الأوروبية اقترضت اللفظة من العربية، فأبدلت (الغين) (كافاً) ثم نطقت اللفظة هكذا (الكُول) بدل (الغَوْل) الذي يعني المادة المسكرة (ALCOHOL) وعندما استوردنا المنتوج على غلاف المنتجات الغربية، عَرَّبناه

هكذا (الكحول)، كأن اللفظ لا وجود له في العربية، وبهذه الكيفية البليدة ضيعنا كلمة سلسة سهلة النطق، واستبدلنا بها لفظة (الكحول) التي لا تنقاد في النطق، كما هو الشأن بالنسبة إلى لفظة (الغَوْل) التي يجب إحياؤها على ألسنة الناطقين بالضاد، قال امرؤ القيس:

رُبَّ كأس شربتُ لا غَوْلَ فيها   وسقيت النديم منها مزاجا

وفي الإطار ذاته أؤكد بعزيمة يحصدها اليقين أن ما وقع للفظة الغول هو نفسه ما جرى لاسم (سوسن) العربي الذي حوله بعض الأغتام مرتعشي اللسان إلى اسم (سوزان)، ظانين أن التغنج في نطق الكلمات يدرجهم في عداد المتمدنين.

أما لفظة (باقة) فقد وقع لها ما وقع للفظة الكحول المعربة من (bouquet)، مع العلم أن الأثبات: يؤكدون أن الاصطلاح الذي يطلق على الأزاهير هو: (الطاقة، أو الضغث) وقد نطق القرآن بذلك في قوله تعالى لسيدنا أيوب من سورة ص، آية رقم ٤٤: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾، قال العلامة الإسكافي: «ضغث من ريحان، ووزيم من بقل، وركلة من كراث، وطن من قث وقصب، وحزمة من سوس وحطب»[1].

---

(١) مبادئ اللغة، مع شرح أبياته، أبو عبد الله الخطيب الإسكافي، دراسة وتحقيق: د. عبد المجيد دياب ص٢٧٥، دار الفضيلة.

٥ ـ التحولات العقائدية والسياسية:

يشهد تاريخ اللغة أن هناك كلمات عديدة تتحكم فيها التغيرات الدينية والسياسية التي يشهدها المجتمع، إذ كلما انتفت الحاجة الدينية والسياسية إلى حشد من الألفاظ، كلما سعى المجتمع اللغوي إلى أن يستبدل بها كلمات جديدة تعبر عن الحاجة المستجدة، ومن ثمة تهمل الألفاظ التي تنتفي مسوغات استمرارها، وتمضي لشأنها منزوية في بطون المعجمات، تاركة المجال لظهور وانتشار الكلمات والألفاظ التي تنبض بالشحنات الدينية والشعارات المذهبية، ولا سيما في الفترات التي تشهد أوج تلك التبدلات.

ولنا في تاريخ الأمة العربية أوْفَى دليل يعكس مستويات المد والجزر الذي يتقاذف كثيراً من الألفاظ والاصطلاحات السياسية والدينية.

أما من الناحية الدينية فالتاريخ يثبت أن العرب كانوا في جاهليتهم «على إرث من إرث آباهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم. فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام حالت أحوال، ونسخت ديانات، وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت. فعَفَّى الآخر الأول..»[1]. قال الأصمعي:

---

(١) الصاحبي أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: السيد أحمد صقر ص٧٨، دار إحياء الكتب العربية ١٩٧٧م.

«كانت الإبل في الجاهلية إذا عَثرت قيل: دعدع لتنمى وترتفع، فلما جاء الإسلام كره ذلك، فقالوا: اللَّهُمَّ ارفع وانفع»، وقد أَلِفَ العرب أن يقولوا للعاثر دعْدَع؛ أي: اسلم بدليل قول رؤبة:

وإنْ هَوى العاثرُ قُلْنا دَعْ دَعَا   لـه وعـالَـيْـنـا بِـتَـنْـعـيـش لـعَـا

وقد نهى الرسول الكريم ﷺ عن تسمية دالية العنب باسم (الكرْمِ) مؤكداً أن الكَرْم هو المسلم، أملاً منه في إبعاد عادة كان يعتقدها الجاهليون، وهي أن شارب الخمرة المعصورة من العنب تورث صاحبها الكَرَمَ والجود. «ومن الأسماء التي كانت فزالت بزوال معانيها قولهم: المرباع، والنشيطة والفضول... ومما ترك أيضاً: الإتاوة، والمكس، والحُلْوان. وكذلك قولهم: أنعم صباحاً، وأنعم ظلاماً. وقولهم للملك: أبيتَ اللعن، وترك أيضاً قول المملوك لمالكه: ربي... وترك أيضاً تسمية من لم يَحُج صَرُورة...»؛ قال رسول الله ﷺ: «**لا صرورة في الإسلام**»(١).

وقد استمرت معركة تزاحم الألفاظ طوال تاريخ الأمة، كل لفظة تبتغي الظهور على سواها بالمظهر الساطع الذي لم يفقد

---

(١) نفسه ص٥٤. وكذلك (الحيوان) أبو عثمان الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون (١/ ٣٢٧ و٣٢٨)، ط الحلبي، القاهرة، ١٩٥٨م.

لها بريق يهب لها الحياة. وفي إطار هذا الصراع ولت حشود من الكلمات الأدبار، وقرت عيناً بالانزواء في بطون أمَّات المعجمات.

كما يشهد على ذلك واقع الكلمات والاصطلاحات السياسية الآتية التي لم يعد لها مكان تتنفس فيه أنسام الحياة: السلطان والصدر الأعظم، والحاجب، والخراج، والرقيق، والإيالة، ووزير الشؤون البرانية الذي أصبح: وزير الخارجية، وأمين الأمناء في المغرب الذي أصبح وزير المالية، والحَرَّاب الذي كان يعني في المغرب مدرب الجنود، والمكس، والنِّخاسة، والمثقال، والأوقية، وهما وحدتان نقديتان كانتا تتداولان بمغرب القرن التاسع عشر الميلاي، ومجلس الشورى الذي أصبح في كثير من البلدان العربية إما مجلس المستشارين أو المجلس الدستوري أو البرلمان أو اللجان الشعبية وهلم جرّاً.

كما أقصيت كثير من الألفاظ والاصطلاحات التي تحمل شحنات الاتجاهين الاشتراكي والشيوعي من الساحة السياسية العربية مثل ألفاظ: الرفيق والطبقة الكادحة وتأميم المؤسسات والبروليتارية والالتزام والخلاص... تاركة المجال لألفاظ اقتصاد السوق الحرة التي أصبحت تتبهنس على أفواه القادة وزعماء الأحزاب السياسية ومن لف لَفَّهُمْ مثل ألفاظ: التجارة الحرة والتبادل الحر والبورصة والسوق المشتركة والنظام العالمي

الجديد والأمركة ونمور آسيا والديمقراطية وحقوق الإنسان والبنك الدَّوْلي والموازنة واللاتركُّزية والفائدة وتفويت ورسملة بورصية وسند اكتتاب وشركة ذات امتياز والعولمة والخصخصة وغيرها مما يعيي تتبعه ويرهق.

٦ ـ العلاقة بين الألفاظ ومدلولاتها:

إن التسمم والبلى اللذين يفضيان بكلمات اللغة إلى الانكماش، يرجعان في الغالب الأعم إلى اختفاء الحاجة إلى المدلول الذي تعبر عنه تلك الألفاظ، لذا فإن جملة من الألفاظ تختفي وتسقط «من الاستعمال لأن مدلولها قد اختفى واندثر، ومن الثابت أن عدداً لا يحصى من الأشياء والنظم والمنظمات التي لم تعد بنا إليها حاجة مع تطور الحضارة، قد اختفت مع الكلمات التي تدل عليها»(١)، مثل عبارات الأمثال الآتية: «ثَرَا بَنُو جَعْدٍ وكانوا أَزْفَلى»، و«أثقل من حِمْل الدُّهَيْم»، و«أجرى من الأَيْهَمَيْن»، و«أجْوع من كَلْبة حومل».

المثل الأول: يضرب لمن عزَّ بعد الذِّلة وكثر بعد القلَّة.

والمثل الثاني: الذي يشير إلى ناقة عمرو بن زبان، قد انتفت الحاجة إليه في عصر الرافعات والشاحنات والسفن والطائرات التي لا تعد ولا تحصى حمولتها.

---

(١) دورة الكلمة في اللغة ص٢١١.

أما المثل الثالث: فهناك وسائل عصرية أكثر جرياً من السيل والجمل الهائج.

وقُل الشيء نفسه بالنسبة لكلبة تلك المرأة العربية القاسية التي تركتها تأكل ذنبها من شدة الجوع.

كما أن مَثَل: «صِئْبان ثوبٍ لقِبتْ هَرانِعا»، الذي يضرب لمن يظهر جدة والناس يعرفون أنه سيئ الحال، من الأمثال التي لم يعد لِكَلِمها وجود في حياتنا المتأنقة التي لم يعد فيها مجال لانتشار القمل وبيضه كما يشير إلى ذلك المثل.

هكذا إذن، يتجلى أن ألفاظ اللغة تساير حياة المجتمع، وتحمل في طياتها آثار التبدلات التي تشهدها المجتمعات، وفي إطار من هذه التبدلات تهجر ألفاظ، لم تعد الحاجة تقتضي وجودها واستمرارها في معترك الحياة، كما تهجر كثير من الألفاظ السيئة السلوك مثل ألفاظ الأعضاء الجنسية وألفاظ البراز، لتحل محلها ألفاظ أكثر تأدباً، وأخفَّ وقعاً، مثل لفظي القلم والدواة، اللذين يطلقهما بعض الفقهاء المتأدبين كناية عن الأيْرِ وَالقَفيز، اتباعاً منهم لأسلوب القرآن الكريم الذي عبَّر عن عملية التزاوج بألفاظ: الحرث والإفضاء والملامسة والطمث والمباشرة والرفث والإتيان. . . وهي كلها ألفاظ وتعابير أخفَّ وقعاً، وألطف معنى، وأدعى إلى الاستعمال واستبدالها بالألفاظ الفاحشة التي يميل المجتمع إلى هجرها اعتباراً لسمعتها السيئة.

٧ ـ الجانب الصوتي وكثرة الاستعمال:

تندرج عملية اختفاء الأصوات من الكلمة في العربية في إطار الجهود التطويرية، التي ترمي إلى دفع التكلف عن المتكلم الذي يرجو التعبير عن المعنى بأقل عدد من أصوات اللغة، ولا سيما عندما يكثر دوران اللفظة على ألسنة اللاسنين. وهي حقيقة يطمئن إليها علماء اللغة، ويدرجونها ضمن التطورات التي يقوم بها المجتمع الذي يستعمل اللغة، وفي أثناء هذا الاستعمال تتعرض بعض الألفاظ لعملية بتر بعض أطرافها، الأمر الذي يفضي إلى إصابتها بالخلق والبلى، بالقدر نفسه الذي وقع لأوراق أصحاب الرقيم بعد طول هجودهم في كهفهم.

وتعد ألفاظ التحية التي يتداولها الناس صباحاً ومساءً، من أكثر الألفاظ التي تجلي هذه الظاهرة مثل قولهم: عِمْ صباحاً بدل أنعم صباحاً، ومرحى بدل مرحباً.

كما أن هناك أدوات يميل الاستعمال إلى قص بعض أطرافها مثل (لعل) التي يقال فيها (عل) بحذف اللام الأولى، قال الشاعر:

أسرب القَطَا هلْ من مُعيرٍ جناحه عـلِّـي إلـى مـن هـويـتُ أطـيـرُ

كما أن المجتمع اللغوي يصرُّ على استبدال الأصوات الخفيفة بالأصوات الثقيلة، التي لا تنسجم في ما بينها في الكلمة الواحدة كما هو الشأن بالنسبة إلى لفظة (المشعبذ) التي أصبحت (المشعوذ).

وقُل الشيء ذاته بالنسبة إلى ألفاظ: الغلت: الغلط،

اللفام: اللثام، نغق الغراب: نعق الغراب، قال صاحب المزهر: إنما هو نغق بالغين. أسنان مفرَّمة: مثرَّمة، الأقثار: الأقطار، أنطى: أعطى، قال الأعشى:

جيادُك في الصيف في نَعْمة تُصان الجلال وتنطي الشعيرا

كما أن (ما) الاستفهامية عندما يسبقها حرف جر يحذف ألفها وجوباً، مثل قول الشاعر أحمد شوقي في مطلع قصيدة (شهيد الحق)[1]:

إلام الخلف بينكم؟ إلاما؟ وهذي الضجة الكبرى علاما[2]؟

غير أن الذي يحير الباحث في أثناء البحث في قضية حذف نَيفٍ من أصوات الكلمة ابتغاء اليسر في الاتصال، أن هناك كلمات في العربية وردت لدى الثقات محذوفة الصوت الأخير، غير أنها بقيت مهجورة بالية مثل كلمات: الأرانب والثعالب والتلامذ. قال صاحب لسان العرب: «التلام اسم أعجمي ويراد به الصاغة، وقيل: غلمان الصاغة، يقال: هو بالكسر يقرأ بإثبات الياء في القافية، ورواه بعضهم بأيدي التلام، فمن رواه التلامي، بفتح التاء وإثبات الياء، أراد التلاميذ؛ يعني: تلاميذ الصاغة. قال: هكذا رواه أبو عمرو، وقال: حذف الذال من آخرها كقول الشاعر:

---

(١) ديوان الشوقيات، أحمد شوقي، (١: ١/ ٢٢١).

(٢) لقد تم الإبقاء على ألف إلام وعلام؟ للضرورة الشعرية.

لـهـا أشـاريـر مـن لـحـم تُـتَـمـرُه   من الثعَالي، وَوَخْزٌ من أرانيها

أراد من الثعالب ومن أرانبها. ومن رواه بأيدي التلام، بكسر التاء، فإن أبا سعيد قال: التلم: الغلام، قال: وكل غلام تلم، تلميذاً كان أو غير تلميذ، والجمع التلام»(١). وقد أورد معجم الصحاح والقاموس الكلمة في مادة (تِلْم)، بينما أوردها اللسان والتاج ومحيط المحيط والمتن والوسيط في كل من مادتي (تلم) و(تلمذ)، وأوردها أقرب الموارد في مادة (تلمذ)(٢).

كما أن هناك لفيفاً من الكلمات التي زادت العرب صوتاً في آخرها، لكنها تعد من الألفاظ البالية المهجورة مثل قولهم: العبدل للعبد، والهيقل للهيق ـ وهو ذكر النعام ـ، والطيسل للطيس ـ وهو العدد الكثير ـ، والضيفن للضيف، وهلم جرّاً.

٨ ـ التعابير المبتذلة التي هجنها الاستعمال:

هناك جيش من العبارات التي تتعاورها الألسنة، وقد كانت في عهد آنف من الغُرر فأصبحت بعد طول استعمالها من العُرر، التي رميت بالهجر والنسيان، وطوى المجتمع اللغوي كشحه عنها. من ذلك العبارات الواردة في كثير من الأمثال

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، (١٢/ ٦٦ ـ ٦٧)، ط ٣، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، دار صادر، بيروت.

(٢) معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة، محمد العدناني ص١٠٠، ط ١٩٩٦م، مكتبة لبنان.

العربية: لا يستطيعه إلا شرَّابٌ بأنْقُع: خبير محكم. الإجادة عندهم مثل بارح الأروى: قليلة نادرة. مثل من أهدى البريرة إلى نُعمان، حيث إن وادي نعمان مشهور بكثرة الثمر. هذا أمر لا ينتطح فيه عنزان: لا يُختلف فيه.

وقُل الشيء ذاته بالنسبة إلى بعض التعابير التي لا يرجى نشورها، ولا ينتظر أن تثمر شيئاً يكون محركاً للفكر، ولذلك طردت من حظيرة الفصحى المعاصرة كما يطرد العدو من ساحة القتال، مثل: لا أحاشي بك أحداً: أميزك عنهم ولا أجعلك وإياهم في حِشىٰ واحد؛ أي: ناحية، ومثل: كذب عليكم الحج؛ أي: وجب، وقولهم: نشر الله حَجرتك: كثَّر مالك وولدك.

والعبارات التي تستعملها العرب في أثناء التعبير عن التأسف والتلهف والحزن عن الشيء الفائت مثل: يا عيد مالك، ويا هي مالك، ويا فيُّ مالك.

كما أن عبارات الإتباع التي يَتِدُ بها العرب كلامهم مثل: أشقُّ أمقُّ خِبَقٌّ: الفرس السريعة الطويلة، وسَهْدٌ مَهْدٌ: حَسَن، وبذير عفير بَثير: كثير، وعَلْجَمٌ خلجم: شديد الطول.

٩ ـ ما وضعه الأعراب النحارير:

وهم فئة من الأعراب توفرت فيهم خاصيتي البداوة وسلامة اللسان. قال أبو عمرو بن العلاء: «سألت رجلاً من سعد بن بكر من أهل ذات عرق فقلت: هذا الكوكب الضخم ما تسمونه؟

قال: الدريء. وكان من أفصح الناس»[1].

وقد روى الأصمعي قال: «سألت المنتجع وهو أعرابي من بني نبهان من طيء عن السميدع فقال: «هو السيد الموطأ الأكناف»[2]. وقد روى عنه ابن السكيت أنه سمع المنتجع يقول: «الضمد: الغابر من الحق، يقال لنا عند بني فلان ضمد؛ أي: غابر من حق»[3]. وسأل أبو حاتم السجستاني عن نوع من الحَبِّ يقال له بالفارسية: (أسفيوش)، فقالت أم الهيثم: «أرني منه حبات، فأراها، فأفكرت ساعة ثم قالت: هذه البُخْدُق. قال ابن خالويه: البُخْدُق: نبت، ولم يعرف إلا من أم الهيثم»[4].

وقد أورد ابن جني في الخصائص باباً سماه: «باب في الشيء يسمع من العربي الفصيح، لا يسمع من غيره»، ومن ذلك ما جاء به ابن أحمر الباهلي مثل: الجَبْر: الملك، وكأس رَنَوْناة؛ أي: دائمة، والديدبون: اللهو، والمأنوسة: النار، والحيرم: البقر[5].

---

(١) الأعراب الرواة، د. عبد الحميد الشلقاني ص٢٧٤ و٢٧٥، ط٢، ١٩٨٢م، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس ـ ليبيا.
(٢) المرجع نفسه ص٢٣٣.
(٣) نفسه ص٢٣٥.
(٤) نفسه ص٢٥٨.
(٥) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار (٢/ ٢١ و٢٢ و٢٣)، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان.

خامساً: خاتمة

هذه جملة من العبارات المبتذلة التي سحب عليها الزمان أذيال العفاء، وقد يكون من أسباب ابتذالها وهجرها، أنها كانت تعبر عن مجتمع بدوي صرف لا يهش لها ذوقنا الآن، ولا نجد في أثناء استعمالها ما يجد البدويون من مشاعر لا تشم ولا تفرك.

* * *

والآن، بعد هذه الإطلالة الخاطفة التي اعتمدتُ النخل في عرض قليل من الكلمات البالية المهجورة في عربية اليوم، والتي كابدت فيها النهج العسير، هل أستطيع القول أني أدركت البغية في تهييج الأقلام الآبية عن إدراك أن كلمات اللغة تعد بمثابة مصابيح تشع أصناف التفكير، والعادات المرتبطة بالمجتمع المتغير، في إطار من المحافظة على الأصول الصالحة، وعلى هدي من هذا التوازن بين القديم والجديد تتولد ألفاظ جديدة، وتبلى أخرى، في إطار من الضيق والاتساع، رغبة في جلب منفعة أو درء مفسدة؟

أغلب الظن أني لم أُشْبع الموضوع بحثاً في تفسير مزيات اللغة العربية، وعرض خصائصها وقوانين تطورها، ولم أستقص النظر في جميع شرائط ومظاهر التطور، ولم أتتبع أوَابِد الألفاظ البالية لفظاً لفظاً، وأن هناك كثيراً مما لم أذكره ما يزال بين جدران المخيلة تعتلج منه أشياء، لم أستطع الإبانة عنها تماماً

كما صرح بذلك الفرَّاء في القرن الثاني الهجري قائلاً: «أموت وفي نفسي من حتى شيء».

أما أنا فإنني أموت، وأنا على يقين أن اللغة العربية لن يصيب البلى ألفاظ قرآنها؛ لأنها يَمٌّ لا ساحل له، كلما انجلت منه قطرات، أعقبت بفلوج متحدرة من هنا وهناك استجابة لقوله تعالى من سورة الكهف آية ١٠٩: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾.

أسأل الله ألا نسأل عما جهلنا، وأن ننتفع بما علمنا، وألا نكون مثل ذلك البدوي الذي رضي فقال أحسن ما علم، وعندما غضب قال أسوأ ما عرف، آمين.

كما أدعو المفِنِّين والنطاسيِّين والمخضربين من هذه الأمة أن يحرصوا على الثروة اللفظية التي تزخر بها العربية الفصحى، وأن يعملوا على تلْيين ودَلْك ألفاظها الخشنة النافرة، لتجديد مطارفها البالية بإبداع اصطلاحات للمخترعات الحديثة من خلال المواد اللغوية البالية القديمة كما هو الشأن بالنسبة إلى صنيع الغربيين في أثناء استنجادهم باللغة اللاتينية لتسمية كثير من المبدعات العلمية.

وقبل أن أمسح اليراع عن هذه الصفحات أقترح على المجامع اللغوية العربية هذا الاصطلاح العربي الأصيل الذي ولَّدْته من لفظة «التذمير» لتسمية آلة الفحص بالأشعة

(Echographie) التي تستطلع وضع الأجنة في بطون الأمهات هكذا: (المُذْمرة).

قال الشاعر الكميت مشيراً إلى لفظة المذَمِّر:

إذا طرَّق الأمر بالمغلقات يتْناً وضاق به المهبل
وقال المذَمِّر للناتجين متى ذُمِّرت قبلي الأرجل

والمذمر: «الذي يدخل يده في رحم الناقة ليعلم ما الجنين؟ سمي بذلك لأن يده تقع على مُذمَّر الجنين»(١).

❒ ❒ ❒

(١) كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢/ ٨٦٢)، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

اقتراحات عملية لأجل التطوير الناجع

من أظهر ما يجب التنبيه عليه، أن سياسة العولمة تسير بالعالم المعاصر في اتجاه الانفتاح والتهجين والتقريب بين اللغات، أو قُل على الأصح، إن هذه السياسة القديمة الجديدة تسعى إلى فرض تصوراتها ومفاهيمها على الأمم المستضعفة، وتجبرها على الإذعان المفرط بجواز تقبُّل التغيرات التي تظهر اللغات الهندية الأوروبية استعداداً للإنخراط فيها وخوض غمارها، غير عابئة بالخصائص المتفردة التي تتمتع بها اللغات السامية، التي تعتمد حركتها الذاتية في استيعاب الجديد وتكاثر أبنائها وحفدتها، على حركتها الداخلية الانفجارية، التي تختلف اختلافاً بيناً عن الفصائل اللغوية، التي تعتمد في نموِّها وتطورها على ما أوتيت من قدرة على التضامِّ والإلصاق.

وإذا كانت عدوى نقل العادات اللغوية الأوروبية ـ في مظهرها ـ تمثل نوعاً من التقريب بين لغات الأمم الأخرى، فإن هذه السياسية اللغوية رغم تجلياتها العلمية، تحمل في طياتها تهديداً فاضحاً للغة القرآن الكريم، الذي أودع فيه سبحانه سرَّ أسباب تفوقها في كل الصراعات اللغوية المتغطرسة قديماً

وحديثاً، حيث إن جبروت الأمركة يسعى تحت غطاء المساعدات التنموية التي يبعثها كتائب مدججة بالعتاد الفتاك، إلى التشويش على كيان الأمة، من خلال تسهيل انتقال الألفاظ الأجنبية التي لا تني في حركة الظهور بمظهر التفوق بغير حق، حتى تطوق جِيدَ العربية، وتسرب رؤيتها الخاصة للحياة، من خلال تلك الوفود المُهَجرة سيْلاً جُرافاً قُحافاً أملاً في الإجهاز عليها، معتمداً في استراتيجيته على فئة من العلماء والمثقفين المصابين بالعَمَش الثقافي، والمهاجرين بألسنتهم وعقولهم يبتغون العزة في اللغات الغربية اعتقاداً منهم أن العربية لغة أدب ودين فقط، وأن محاولات التعريب التي تستنفر لها المجتمعات جهودها ليست سوى ضرب من الانقطاع عن أسباب البحث العلمي الجاد.

انطلاقاً من هذه الهجمة الشرسة التي جيشت لها الأمركة وربيبتها العولمة كل أصناف الإبادة، فإن الأمة العربية مدعوة في خِضمِّ هذا الصراع الحضاري الديني اللغوي، إلى ضرورة الأخذ بأسباب بقائها وتنافسها في استرجاع عزتها القعساء، وهي أسباب توجد مِنا على طرفِ الثُّمَام، إذا نحن استبسلنا في إعادة بناء الذات العربية على قيم القرآن والسُّنَّة، والأخذ بأسباب العلم النافع، وصيانة العربية والاعتناء بها نطقاً وكتابة وتهذيباً حتى تسلس على الألسنة كما يسلس الماء العذب الفرات؛ لأن آفة الاضمحلال لا تتسلل إلى اللغات بسبب قلة متكلميها فقط،

ولكن هذه الآفة تظل سوسة نخرة، إذا انحسر مجال توظيفها في فضاءات ضيقة، مثل حجرات الدرس، تاركة اللغات الأجنبية الأخرى تصول في مجالات الصناعة والتجارة والسياسة والقانون والاقتصاد. وهي ظاهرة غريبة طارئة على اللغة العربية في هذا العصر الذي أصبح فيه الضمور الفكري ميسماً ملازماً للأمة العربية التي أظهرت في بائدات الأيام، أنها رائدة العالم في جُلِّ مناحي الحياة، ومن ثمة انتقل تفوقها إلى العربية التي أمدَّت لغات الدنيا بغير قليل من الألفاظ والاصطلاحات، تستنجد بها لسد النقص في التعبير عن الأشياء الجديدة، كما تظهر الكلمات العربية الآتية التي غزت ساحة اللغات الأوروبية: الديوان، والملغم، والتعريف، وأمير البحر، والترجمان، والسكر، والقطن، والقهوة، والغزال، والترجمان، والبرقوق، والفستق، والسوسن، والطاس، والحشيش وهلم جرّاً.

* * *

وفي إطار الأخذ بأسباب النجاح في انتشار اللغة العربية الفصحى سليمة معافاة من أوضار وعلل الهجمة العولمية فإن الباحث يدعو إلى ما يأتي:

أ ـ العناية ـ في أثناء الصناعة القاموسية ـ **باختيار المداخل المعجمية انطلاقاً من الجذور بالنسبة إلى المعجمات الموجهة إلى النحارير الأخصائيين في اللغة**، ومن المفردات بالنسبة إلى المبتدئين من متعلمي العربية، رغبة في التغلب على صعوبات

استعمال المعجم كما يتوضح ذلك من خلال صعوبة العثور على جذر الكلمة الآتية: (ميناء) هل هي (منأ) أم (مأن) أم (وني)، وكذلك الأمر بالنسبة إلى كلمات: (تترى) و(مقة) و(الساج) التي يصعب الوصول إلى أصولها الآتية: (وتر) و(ومق) و(سوج).

ب ـ تطوير الصناعة القاموسية للمعجم العربي، ليستوفي مطالب الفروع اللغوية المختلفة (أصوات وصرف ونحو ودلالة ونطق وإملاء) مع توضيح أنواع الضمائم التي تفضي باللفظة الواحدة إلى تغير دلالتها، كما هو الشأن بالنسبة إلى لفظة (قضى) التي يتغير معناها حسب ما تأتلف معه على الشكل الآتي:

قضى، بمعنى: حتَّم، وأوجب؛ مثل قوله تعالى من سورة الزمر، آية ٤٢: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قضى، بمعنى: أمر؛ مثل قوله تعالى من سورة الإسراء، آية ٢٣: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا...﴾.

قضى، بمعنى: أعلم؛ مثل قوله تعالى من سورة الإسراء، أيضاً آية ٤: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

قضى، بمعنى: اِصْنَعْ؛ مثل قوله تعالى من سورة طه،

آيـة ٧٢: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾.

قضى، بمعنى: هلك؛ مثل قوله تعالى من سورة الأحزاب، آية ٢٣: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ...﴾.

قضى، بمعنى: أتمَّ؛ مثل قوله تعالى من سورة القصص، آيـة ٢٩: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا...﴾.

قضى، بمعنى: حكم؛ مثل قوله تعالى من سورة يونس، آية ٩٣: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إلخ...

ج ـ الوعي بمفهوم التأثيلية (ETYMOLOGIE) في صناعة القاموس من أجل تحديد تاريخ الألفاظ وتتبع الاستعمال الحقيقي والمجازي للفظة، ناهيك عن رصد تاريخ التطور الدلالي الذي يطرأ على الألفاظ، بل ما يعتريها من تغيرات في الأصوات، وما ينتقل إلى حوزة اللغة من ألفاظ الدخيل والمعرب، مع توضيح كيفية اندماج اللفظة المعربة مع أخواتها العروبية كما هو الشأن بالنسبة إلى لفظة: (الحواريون) التي يعود أصلها إلى لفظ (حار) الحبشي، والذي معناه سار أو سافر، وهو المعنى المستفاد من القرآن الكريم في أثناء وصفه لأنصار عيسى عليه السلام، وليس كما زعم العلامة السيوطي في الإتقان، حين أشار إلى أن الحواريين هم الغسالون بالنبطية.

د ـ الحرص على الاستفادة من كتب التراث التي حوت كثيراً من الاصطلاحات العلمية في ميادين عديدة، والتي يجهل كثير منا وجودها، ولا سيما بالنسبة إلى الرسائل اللغوية التي تجمع المادة اللغوية في موضوع واحد، مثل رسائل أبي زيد الأنصاري ورسائل الأصمعي ومن لف لَفَّهُما، مع الحرص على دَلْكِ تلك الألفاظ وصقلها حتى تلين وتستجيب لروح العصر، أملاً في توسيع ثوب العربية الضيق في مجالات الصناعة والتجارة والعلوم الدقيقة، وبذلك نتمكن من الاستغناء عن ضروب الاصطلاحات المقترضة؛ لأن هناك حشداً من الاصطلاحات التي نجهد أنفسنا في البحث عنها، مع أن هناك ما يدل عليها وزيادة في كتب التراث.

هـ ـ استغلال الثراء المعجمي الذي تظهره اللغة العربية بالنسبة إلى بعض الموضوعات، مثل: أسماء وصفات الظلام، وأسماء وصفات اللِّبأ واللبن، وأسماء وصفات الناقة، وأسماء وصفات الخيل، وأسماء وصفات المطر، وأسماء وصفات النبات والشجر، وأسماء وصفات الوحوش وغيرها التي تسهل الاختيار الموفق للتعبير عن الأغراض المختلفة وفق المقامات المناسبة، مع الحرص على نقل أسماء هذه الموصوفات إلى بعض الموضوعات والمخترعات، الناتجة عن حركة التصنيع الحديثة، مثل ما أشرت إليه من اصطلاحات: المُذْمرة والمِثْبنة والمَآلي والمَقْرأة والحَوْجَلة التي تعني القارورة الغليظة الأسفل، وهلم جرّاً...

و ـ الحرص على الاستفادة من التفاعل الجاري بين العربية الفصحى، وبين اللغات الخاصة لجماعة المِهْنيين على اختلاف طبقاتهم ومِهَنهم، أملاً في تهجير ودمج الاصطلاحات المتداولة لدى تلك الفئات في العربية الفصحى، بعد تهذيبها ودلكها وتنقيحها من المغامز التي تنطوي عليها، وتيسير دورانها على الألسنة، بدل وضع ألفاظ محنطة غير مسموعة، وفرضها على المجتمع اللغوي، الذي ألف توظيف اللفظة المهنية وبالتالي لن يستعمل اللفظة الأخرى الموضوعة؛ لأنها غير مفهومة، أو بعيدة عن اللفظ المتداول قبل إيجاد اللفظ البديل؛ لأن مسألة التسمية تظهر أن هناك سباقاً وتنافساً بين ما يقرره المجمعيون، وبين كثير من الألفاظ والاصطلاحات المهنية المستعملة، ويعد الطرف الذي يسبق إلى تسمية الشيء الجديد، هو الرابح الذي يفرض سلطته الاستعمالية على الجانب الآخر، ومن ثمة يصعب طرده من حظيرة اللغة بعد أن تمكن في الاستعمال، واستتب له البقاء على الأفواه.

ز ـ إشباع الميزة التوالدية الانفجارية الاشتقاقية التي تتميز بها اللغة العربية بحثاً، واستقصاءً، رغبة في استغلال إمكانات تقليب أحرف المادة اللغوية الواحدة لتوليد كثير من الصيغ والاصطلاحات الجديدة الموافقة لخصائص العربية، أخذاً بمبدأ ابن جني الذي يبعد الغلط عن أي استعمال لم يخرج عن أصول القواعد، وإن كان غيره أكثر فصاحة منه.

ح ـ الدعوة إلى هدم الحدود الزمكانية بين ألفاظ العربية طوال أعصرها المختلفة، مع تسوية الألفاظ المولَّدة بالألفاظ القديمة، من خلال عملية تحرير السماع من قيود الزمكان، وتحميل الألفاظ القديمة معانٍ جديدة، من خلال استغلال إمكانات النقل المجازية لسد النقص في التعبير عن الأشياء الدقيقة التي يضيق فيها ثوب العربية الفضفاض في مجالات أخرى أكثر التصاقاً بالبيئة العربية الصحراوية.

ط ـ الانتباه في أثناء اعتماد استراتيجية الاقتراض من اللغات المتفوقة، إلى أن الاقتراض أصبح بالنسبة إلى العربية ـ وإلى غيرها من لغات العالم المتخلف ـ **شراً لا بد منه،** لذلك يجب التنبيه إلى مواطن القوة وشرائط التوافق والمنفعة، رغبة في تحقيق أهداف الدمج التي تراعي ظروف العربية وطبيعتها حتى يستطيع اللفظ المقترض (الدخيل والمعرب)، أن ينسجم ويتوافق مع أنظمة العربية، تماماً كما انسجمت الألفاظ المقترضة من اللغات الأخرى في القرآن الكريم.

ي ـ الدعوة إلى دفع الحكومات العربية إلى اتباع سياسة لغوية عربية ناجحة، تفرض تعميم تدريس العلوم باللغة العربية في كافة أطوار التعليم (الأساسي والثانوي والجامعي)، رغبة في توحيد الميول والاتجاهات، والتخلص من التبعية الزائدة، وتطهير اللغة من الاصطلاحات الأجنبية، من خلال وضع المصنفات الخاصة بتدريس العلوم، ناهيك عن الفوائد الجمة

التي تربحها العربية التي تتسع رقعة استعمالها، ويضيق مجال التباعد بينها وبين اللهجات المحلية من خلال انتشار الاصطلاحات العلمية والفنية والسياحية والاقتصادية، وتداولها بين مختلف الفئات الاجتماعية، مع إعادة النبض إلى كثير من الاصطلاحات العربية، بعد ما كانت المصنفات التي تضمها مجرد متون وقراطيس ملوثة بالحبر نظراً للإهمال الذي لحق بها، فكفت أن تكون لغة الحياة التي تجري فيها الدماء.

كما أن الحكومات مدعوة إلى محاربة كل أشكال استخدام اللغات الأجنبية في الوثائق الإدارية، وفي عتبات المحال التجارية، مع الالتزام بتوحيد الاصطلاحات العلمية التي تصدرها المجمعات العربية، ولا سيما منها مكتب تنسيق التعريب بالرباط التابع لجامعة الدول العربية، وبذلك وحده نتمكن أولاً من تقوية مناعتنا اللغوية ضد حشود الألفاظ الأجنبية، التي تتدفق على لغتنا من كل حدب وصوب، وثانياً نساهم في كسر الحاجز النفسي الذي يعانيه بعض العلماء والمثقفين العرب الذين يتمسكون باللغات الأجنبية، ويعدونها من علامات النجاح والتحديث، معتقدين أن العربية لا تصلح أن تدَرَّسَ بها العلوم الدقيقة؛ لأنها استنفذت قوتها في الأدب والدين، وأن أي توجه نحو تدريس العلوم باللغة العربية ينتهي بالأمة إلى الانقطاع عن أسباب الحداثة العلمية.

ك ـ الاستفادة من (جمع الجمع) مع تحويل دلالته إلى

اصطلاحات فنية وعلمية، نظراً لما يوفره هذا الجمع من إفادة التخصيص، وليس كما يعتقد الجمع الكثير. فقولنا: (رجالات المعرفة) لا يقصد منه سوى الرجال المشاهير في المعرفة، وبذلك يمكن تخصيص جمع الجمع بمعان محددة مثل:

دفوعات بنكية، ورسومات جمركية، وقبوضات مصرفية، وعمولات، وبيوتات، وحمولات..

❒ ❒ ❒

خلاصة

قبل أن أمسح اليراع عن هذه القراطيس، بعد أن وصل بي البحث في عرض قوانين تطور العربية الفصحى إلى نقطة النهاية، أعتقد أن المقام يفرض مساءلة الضمير عن نوعية الجولة وأصناف الغذاء التي بسطتها للقراء لتأمين الرحلة الشائقة عبر مسارات ومنعرجات هذه الرفقة في عرصات ورياض اللغة العربية، التي يفوح أريج تويجاتها مالئاً الآفاق، مقدِّماً بلسماً للروح، وعبيراً للأنف، ومتعة للعين، ونشاطاً للفكر.

هل اجتهدت هذه الرحلة في تزويد القارىء العادي بالوقود الكافي لتأمين الوصول الناجح الذي يفضي إلى التتويج بأكاليل الظفر؟

ما قيمة الأنفال والغنائم التي يضيفها القارىء إلى مذخراته، للاستعداد لرحلات سندبادية أخر أكثر أهوالاً؟

هل يُعد توصيف اللغة العربية كائناً حياً ـ شأنها شأن باقي اللغات ـ مستوفياً لخلود العربية وقداستها اللذين تستمدهما من القرآن الكريم؟

هل يصح أن نقيس لغة القرآن بما يحدث الآن للغات المعاصرة من تغيرات لا أول لها ولا آخر؟

أسئلة كثيرة، لا أزعم أني قتلت أجوبتها بحثاً، حتى انتهيت فيها بالمتخير اللباب، الذي يقطع دابر كل معترض يلوح ببنات أفكار الغرب الماحقة، يريد تفصيلها على جسد اللغة العربية الذي تكفل صريح المنقول بحفظها في قادمات الأزمان وكرور الملوان في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقد انصرفت جهودي في هذا البحث، إلى التأكيد أن اللغة العربية الفصحى ليست مجرد وسيلة حاملة للفكر، ولكنها فوق ذلك تمثل الإسلام، وتؤشر على الخصائص الموحدة للعروبة، وأن تطورها يجب أن يسير وفق نظام محدد في أصواتها وصرفها ونحوها ودلالاتها، وأن هذه الأنظمة ليست متساوية في الاستجابة للتطور، بدليل أن الأنظمة الصوتية والصرفية والتركيبية قد بلغت شأواً بعيداً في الاستقرار والكمال، لا يطولها التغيير إلا لماماً، بينما لا يني النظام المعجمي يتفقح عن أصناف الأزاهير التي تجعل ثوب العربية قشيباً على الدوام، من خلال الخاصية التوالدية الانفجارية التي تميز العربية، أو بواسطة عمليات النقل المجازية التي توسع المعنى أو تضيقه، أو من خلال مراعاة نظرة المجتمع لألفاظ اللغة من حيث رقيها وانحطاطها، سهولتها وصعوبتها رغبة في إبعاد جريرة التكلف عن العربية.

المحصلة النهائية لظاهرة التطور في اللغة العربية تنهض على الحركة الذاتية لهذه اللغة الربانية، التي أوتيت من المزيات ما لم يتوافر لغيرها، والتي سلكت سبلاً شتى للتعبير عن المقامات المختلفة، لم تستنكف من الاقتراض من لغات الأمم الأخرى لسد الحاجة في التعبير عن الأشياء الجديدة، لكنها لم تشرع الأبواب والنوافذ ليتسرب الكلم الدخيل إلى ساحتها جيشاً جراراً يستولي على قلاعها وحصونها، ولذلك لا تحس قلقاً ولا أَمْتاً في الألفاظ المعربة التي استدخلها القرآن الكريم إلى حظيرته، فبدت عروبيات بجرسها وأصواتها وزينتها وهيئتها كما تظهر الكلمات الآتية: السلسبيل والسجيل والكافور والسندس والفردوس واليم والسرادق والقسطاس والطور والمشكاة والقسورة والسجيل...

وإذا كانت لغة القرآن خالدة لا يصيب البلى ساحتها، فإن الألفاظ الغريبة التي كان العرب يتفاخرون ويتبارون في معرفتها للشيء الواحد حتى قالوا في زوج الرجل إنها: الحليلة والعرس والطلَّة والربض والقعيدة والبعلة والشَّهْلة والجثْلة والمُغَزِّبة والحوبة... التي يُعد أكثرها كلمات غريبة مهجورة في بطون أمَّات المعجمات حتى تتاح لها الفرصة لانبعاثها من جديد، بعد أن ينفُضَ عنها أحد المفنين اللَّوْذعيِّين غبار الملوان، يجليها في أحسن كسوة ويحملها معنى جديداً تَتَشَوَّفُ إليه الأفهام.

وبعد: هل تمكنت هذه القراطيس من إثبات أن اللغة

العربية الفصحى تستجيب لعمليات التطور من خلال إجراءات الاتساع والضيق والعدول والرقي والانحطاط والهجر والبلى والتجدد والهجود، وأن تجددها وانكماشها يقاسان بدرجات اتساع عقول أبنائها في فتق ميادين المعرفة الجديدة في العلم والصناعة والتجارة والسياحة والاقتصاد والحرب والسياسة والقانون؟ . ذلك هو الرمي الذي قصدت إليه، فإن أفلحت في إصابة عين القرطاس، واجتهدت في وضع الهِنَاء مواضع النقَب، فتلك كانت بغيتي التي غَبَرْتُ لها بُرْهة لخدمة لغة الضاد، وإن نَدتْ عني بعض العوامل والقواعد، وانفلت من قبضتي نيف من الخيوط الموصلة إلى إحكام نسج أرقى أثواب العربية الفصحى وأبهاها، فحسبي أني مهدت السبيل في بذل ما تجمع لدي، وأرجو الله أن ينسأ لي في العمر، وأن يؤتيني من حكمته ما أستطيع به في قادمات الأيام أن أبلغ بموضوع تطوير اللغة العربية من الداخل ذروة التنطس والاستقصاء، آمين.

تم بعون الله بتاريخ ٢١ محرم ١٤٢٣هـ

الموافق لـ ٤ نيسـان ٢٠٠٢م

عبد الله أيت الأعشير

فهرس الموضوعات

قائمة إصدارات

الوعي الإسلامي

- ❖ القدس في القلب والذاكرة.
- ❖ حقوق الإنسان في الإسلام.
- ❖ النقد الذاتي.. رؤية نقدية إسلامية لواقع الصحوة الإسلامية.
- ❖ الحوار مع الآخر.. المنطلقات والضوابط.
- ❖ المجموعة القصصية الأولى للأطفال.
- ❖ المرأة المعاصرة بين الواقع والطموح.
- ❖ الحج.. ولادة جديدة.
- ❖ الفنون الإسلامية.. تنوُّع حضاري فريد.
- ❖ لا إنكار في مسائل الاجتهاد.
- ❖ المجموعة الشعرية الأولى للأطفال.
- ❖ التجديد في التفسير.. نظرة في المفهوم والضوابط.
- ❖ مقالات الشيخ محمد الغزالي في مجلة الوعي الإسلامي.
- ❖ مقالات الشيخ عبد العزيز بن باز في مجلة الوعي الإسلامي.
- ❖ رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام.
- ❖ موسوعة الأعمال الكاملة للإمام الخضر حسين.
- ❖ علماء وأعلام كتبوا في الوعي الإسلامي.
- ❖ براعم الإيمان.. نموذج رائد لصحافة الأطفال الإسلامية.
- ❖ الاختلاف الأصولي في الترجيح بكثرة الأدلة والرواة وأثره.
- ❖ الإعلام بمن زار الكويت من العلماء والأعلام.
- ❖ الحوالة.
- ❖ التحقيق في مسائل أصول الفقه التي اختلف النقل فيها عن الإمام مالك بن أنس.
- ❖ الأصول الاجتهادية التي يبنى عليها المذهب المالكي.
- ❖ الاجتهاد بالرأي في عصر الخلافة الراشدة.
- ❖ التوفيق والسداد في مسألة التصويب والتخطئة في الاجتهاد.
- ❖ فقه المريض في الصيام.

- ❖ القسمة.
- ❖ أصول الفقه عند الصحابة ـ معالم في المنهج.
- ❖ السنن المتنوعة الواردة في موضع واحد في أحاديث العبادات.
- ❖ لطائف الأدب في استهلال الخطب.
- ❖ نظرات في أصول البيوع الممنوعة.
- ❖ الإعلاء الإسلامي للعقل البشري (دراسة في الفلسفات والتيارات الإلحادية المعاصرة).
- ❖ ديوان شعراء مجلة الوعي الإسلامي.
- ❖ ديوان خطب ابن نباتة.
- ❖ الإظهار في مقام الإضمار.
- ❖ مسألة تكرار النزول في القرآن الكريم.
- ❖ الحافظ أبو الحجاج يوسف المزي، وجهوده في كتابه «تهذيب الكمال».
- ❖ في رحاب آل البيت النبوي.
- ❖ الصعقة الغضبيّة في الردّ على منكري العربية.
- ❖ منهاج الطالب في المقارنة بين المذاهب.
- ❖ معجم القواعد والضوابط الفقهية.
- ❖ كيف تغدو فصيحاً.
- ❖ موائد الحيس في فوائد امرئ القيس.
- ❖ إتحاف البريّة فيما جدّ من المسائل الفقهية.
- ❖ تبصرة القاصد على منظومة القواعد.
- ❖ حقوق المطلقة في الشريعة الإسلامية.
- ❖ اللغة العربية الفصحى، نظرات في قوانين تطورها، وبلى المهجور من ألفاظها.
- ❖ المذهب عند الحنفية ـ المالكية ـ الشافعية ـ الحنابلة.
- ❖ منظومات في أصول الفقه.
- ❖ أجواء رمضانية.
- ❖ المنهج التعليلي بالقواعد الفقهية عند الشافعية.
- ❖ نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده.
- ❖ دراسات وأبحاث علمية نشرت في مجلة الوعي الإسلامي.